عبَاداتُ الإسْلام وشعَائِره الكُبرَى

أسْرارهَا وأثَرهَا في الحيَاة

- الصلاة.
- الزكاة.
- الصيام.
- الحج.

obeikandl.com

obeikandl.com

عبادات الإسلام وشعائره الكبرى

● المراد بعبادات الإسلام

حين نتحدث عن «عبادات الإسلام» نعني بها تلك الصور المحددة التي رسمها الإسلام للتقرب بها إلى الله تعالى. واتخذها شعائر مميزة له، وعين لها مواقيت ومقادير وكيفيات لا مجال فيها لتبديل أو تعديل. وهذا ما يجعلنا نقصر الحديث على العبادات الأربع المعروفة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

ولو شئنا أن نفسح المجال لكان علينا أن ندخل في حديثنا -على الأقل- عبادتين من أهم العبادات الإسلامية التي لم تدخل في نطاق التعبد بتحديد المواقيت والكيفيات، وهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والجهاد في سبيل الله.

فالفريضة الأولى من السمات التي تميزت بها هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وهي من شعب الإيمان وخصال المؤمنين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] ومن فرَّط فيها لُعِنَ كما ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

والفريضة الثانية قد أُمر بها المسلم كما أمر بالركوع والسجود وسائر العبادات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥] والرسول ﷺ يقول: «من لقى الله بغير أثر من جهاد لقي الله وفيه ثلمة»[١].

ويبين القرآن عظم مثوبة المجاهدين فيقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقال ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وسأله بعضهم: يا رسول الله. . ما يعدل الجهاد في الله؟ قال: لا تستطيعونه. فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا وكل ذلك يقول: لا تستطيعونه. ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة صيام، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[٣].

ومع ما لهاتين الفريضتين أو العبادتين -الجهاد والأمر والنهي- من شأن ومنزلة في الإسلام، فإننا ندع الحديث عنهما هنا، حيث نتجه إلى العبادات الشعائرية الكبرى. التي وضح فيها معنى التعبد، وهي التي تُلتمس في العادة آثارها. وتُطلب أسرارها.

● عبادات قديمة جديدة

العبادات الإسلامية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج عبادات قديمة. عرفتها الأديان قبل الإسلام على صورة من الصور، فالله تعالى يقول عن بعض الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث غريب.
(٢) رواه البخاري. (٣) متفق عليه.

وفي الصيام يقول القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣].

وفي الحج يقول : ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج : ٢٦، ٢٧].

ولكن هذه العبادات الأربع كانت في تلك الديانات مناسبة لعصرها وبيئتها ، فلما جاء محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة. الملائمة للبشرية في طور نضوجها ، فرض الله عليه هذه العبادات في أكمل صورة لها. ورقى كل نوع منها إلى غايته ومنتهاه. ونقاها من كل ما شابها خلال العصور وكر الدهور.

فالصلاة لم تعد مجرد ابتهال ودعاء. ولكنها ذكر ودعاء وتلاوة. هي أقوال وأعمال يشترك فيها الفكر والقلب واللسان والبدن. اشترط الإسلام لها النظافة والطهارة ، وأخذ الزينة ، والاتجاه إلى قبلة واحدة ، ووزعها على أوقات النهار والليل بمواقيت معينة ، وحدد لكل صلاة منها ركعات معدودة ، ورتب كيفيتها على نسق فريد ، وكملها بما شرع فيها من جماعة وجمعة ، وزان ذلك كله بما شرع من أذان وإقامة.

والصلاة الإسلامية بهذه الصورة ، وتلك الشروط ، عبادة فذة لم تُعرف هكذا في دين من الأديان.

والزكاة في الإسلام عبادة فذة. إنها ليست مجرد إحسان يتبرع به متبرع ، أو صدقة يتطوع بها متطوع. إنها حق معلوم ، وضريبة مقدرة على كل من يملك نصابًا محددًا ناميًا من المال حال عليه الحول ، فاضلًا عن الحاجات الأصلية لمالكه. إنها حق الله فيما أنعم به من مال أو تجارة أو زرع. حق يدفع الإيمان إلى أدائه ، وتقوم الدولة على جبايته ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] فمن أداها طيبة بها نفسه ، فقد كسب رضا الله والناس ، وفاز بخيرى الآخرة والأولى ، ومن أبى قُسر على أدائها قسرًا ، فإن كانت له شوكة قوتل وجُندت له الجنود حتى يؤديها : وهذا ما صنعه الخليفة الأول

أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع ما نعى الزكاة.

فالزكاة بهذا الوضع وبمصارفها التي بينها القرآن عبادة جديدة لم تُعرف بهذا الكمال في دين من الأديان.

وكذلك الصيام والحج والذكر والدعاء عبادات قديمة مشتركة في أديان كثيرة، ولكن الإسلام نقى هذه العبادات جميعًا من كل شائبة، ورقى كل نوع منها إلى غايته، وركز فيها من الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالد، مهمته إصلاح الفرد، وإسعاد البيت، واستقرار الجماعة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين.

● أسرار العبادات وآثارها

والأصل في العبادات أنها تؤدى امتثالًا لأمر الله. وأداء لحقه على عباده، وشكرًا لنعمائه التي لا تُنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود. الأصل فيها أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فلا معنى لأن يدرك السر في كل تفصيلاتها. فالعبد عبد. والرب رب. وما أسعد الإنسان إذا عرف قدر نفسه!

ولو كان الإنسان لا يتعبد لله إلا بما وافق عليه عقله المحدود وعرف الحكمة فيه تفصيلًا، فإذا عجز عن إدراك السر في جزئية أو أكثر من جزئياته. أعرض ونأى بجانبه -لكان في هذه الحال عبد عقله وهواه، لا عبد ربه ومولاه.

إن العبودية لله شعائرها الإيمان بالغيب ولو لم تره، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره.

وحسب المؤمن أن يعلم بالإجمال أن الله غني عن العالمين، غني عن عباداتهم وطاعاتهم، فلا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمرن: ٩٧].

فالله غني عن عباده كل الغنى، وإذا تعبدهم بشيء فإنما يتعبدهم بما يصلح أنفسهم، ويعود عليهم بالخير في حياتهم الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، والدنيوية

والأخروية. غير أن الإنسان المحدود قد تخفى عليه حكمة الله جل علاه.

وكم لله من سر خفي يدق خفاه عن فهم الذكي

وكما أخفى كثيرًا من أسرار هذا الكون عن الإنسان. أخفى عنه بعض أسرار ما شرع ليظل الإنسان في هذا وذاك متطلعًا بأشواقه وراء المجهول آملًا في الوصول. معترفًا بالقصور. . وليظل دائمًا في دائرة العبودية المؤمنة التي شعارها دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد ذكر الإمام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: «أن العبادات لصحة قلب الإنسان. كالأدوية لصحة بدنه، وليس كل إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه إلا الطبيب أو العالم الذي اختص بمعرفته. وكل مريض يقلد الطبيب فيما يصف له من دواء ولا يناقشه فيه. قال: فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يُدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن اختلاف الأدوية في المقدار والوزن والنوع لا يخلو من سر هو من قبيل الخواص. فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى إن السجود ضعف الركوع. وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، فلا يخلو عن سر من الأسرار، وهو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة. فقد تحامق وتجاهل جدًّا من أراد أن يستنبط لها حكمة، أو ظن أنه ذكرت على الاتفاق لا من سر إلهي فيها»[1].

وبهذا علم أنه من الخطأ البين أن نطلب لكل تفصيل من تفصيلات العبادة حكمة تقنع العقل، وتشبع نهمه، ولا سيما ذلك العقل المادي الحديث الذي لا يشبعه إلا الحسية والنفعية.

فالعبادات - كما قال الأستاذ العقاد - شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها. ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها. إلا أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر. لو استبدل

(١) «المنقذ من الضلال» للإمام الغزالي بتصرف.

منه ما اقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها.

«لماذا يكون الصوم شهرًا ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة؟

لماذا تكون حصة الزكاة جزءًا من عشرة أجزاء، ولا تكون جزءًا من تسعة أو من خمسة عشرة؟

لماذا نركع ونسجد ولا نصلي قيامًا أو قيامًا وركوعًا بغير سجود؟

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع. أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقدار، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذي اتفق عليه أتباع الدين.

وليس معنى أن هذه الأوضاع لا تُعرف لها أسباب تدعو إليها، ونفسر لنا اتباعها دون غيرها، ولكنها في نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل، لأن المقترح المعدِّل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التي يرفضها، ويميل إلى سواها.

ويسرى هذا على كل تنظيم في أمور الدنيا، ولا يسرى على أمور الدين وحده.

فلماذا يكون عدد الكتيبة في جيش الأمة خمسين مثلًا ويكون في أمة غيرها أربعين أو مائة؟

ولماذا يُجعل اللون الأخضر رمزًا لهذا المعنى في ألوان العلم القومي عند قوم من الأقوام، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين.

لا مناص في النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب إلى العقل من المجادلة فيها»[1].

وقد ضل قوم حادوا أن يفهموا الحكمة في كل جزئية من جزئيات العبادة، فلما خفيت عليهم أسرار بعض التفصيلات في عبادة كالحج شكوا وشككوا، وهم في شكهم وتشكيكهم ضالون عن سواء السبيل.

---

(١) حقائق الإسلام للعقاد ص ١٠٨، ١٠٩.

الصلاة

الصلاة عبادة عريقة في القدم. وشعيرة مشتركة بين الديانات عامة، ولا أحسب تاريخ الأديان عرف دينًا بغير صلاة.

بيد أن الصلاة الإسلامية لها مزاياها الخاصة. التي برز فيها بوضوح ما ذكرناه من خصائص الإسلام وهديه وما جاء به من إصلاح في العبادات. فلا عجب أن تشتمل على أسرار بليغة لا تشاركها فيها صلاة في أي دين آخر.

● منزلة الصلاة في الإسلام

وقد عني الإسلام في كتابه وسنته بأمرها، وشدَّد كل التشديد في طلبها، وحذَّر أعظم التحذير من تركها، فهي عمود الدين، ومفتاح الجنة. وخير الأعمال، وأول ما يُحاسب عليه المؤمن يوم القيامة. يذكرها القرآن في دعاء الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٠] ويمدح بها الذبيح إسماعيل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥] ويأمر الله كليمه موسى بإقامتها أول ما يأمر به في ساعات الوحي الأولى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤] ويوحي إليه وإلى أخيه هارون: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧] وفي وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وينطق المسيح عيسى في مهده: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] ويأمر الله بها خاتم أنبيائه: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة ٢، ٣] ويبدأ بها ويختم أوصاف المؤمنين المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٩].

ويؤكد المحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩] أي فصلُّوا في حال الخوف والحرب مشاة أو راكبين كيف استطعتم، بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء. وبدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وينذر بالويل والهلاك من يسهو عنها حتى يضيع وقتها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥] ويدمغ بالذم واستحقاق الغي خلف سوء ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ويجعلها الرسول الكريم الدليل الأول على التزام عقد الإيمان، والشعار الفاصل بين المسلم والكافر «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[١] «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٢] وذكر الصلاة يومًا فقال: «من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبيّ بن خلف»[٣] قال العلماء في توجيه هذا الحديث: فمن شغله عن الصلاة ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أُبيّ بن خلف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة فكأنما وتر أهله وماله»[٤] أي أصيب في أهله وماله وأصبح بعدهم وترًا فردًا، فإذا كانت هذه كارثة من فاتته صلاة، فكيف بمن

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.
(٢) رواه الخمسة وقال الترمذي: حسن صحيح، كما رواه ابن حبان والحاكم وصححاه.
(٣) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه.

فاتته الصلوات كلها؟ !

فلا عجب بعد هذه التأكيدات والتشديدات من نصوص القرآن والسنة أن ذهب جماعة من أئمة الإسلام إلى أن تارك الصلاة كافر خارج عن ملة الإسلام، وتساهل آخرون فقالوا: إنه عاص فاسق يخشى عليه فقدان الإيمان.

تلك هي مكانة الصلاة في الإسلام، ولهذه المكانة كانت أول عبادة فرضت على المسلمين، فقد فرضت في مكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، وكانت طريقة فرضيتها دليلًا آخر على عناية الله بها، إذ فرضت العبادات كلها في الأرض، وفرضت الصلاة وحدها في السماء، ليلة الإسراء والمعراج، بخطاب مباشر من رب العالمين إلى خاتم المرسلين.

إن الحكومات تستدعي سفراءها في الأمور الهامة الحاسمة، التي لا تغني فيها المراسلة عن المشافهة. ومحمد ﷺ سفير الله إلى خلقه، فإذا استدعاه الله سبحانه وعرج به إلى السموات العلا، ليخاطبه بفرض الصلوات، كان ذلك برهانًا ناطقًا على سمو منزلة الصلاة وأهميتها عند الله.

● الصلاة المطلوبة

والصلاة التي يريدها الإسلام، ليست مجرد أقوال يلوكها اللسان، وحركات تؤديها الجوارح، بلا تدبر من عقل، ولا خشوع من قلب، ليست تلك التي ينقرها صاحبها نقر الديكة، ويخطفها خطف الغراب، ويلتفت فيها التفات الثعلب: كلا، فالصلاة المقبولة هي التي تأخذ حقها من التأمل والخشية واستحضار عظمة المعبود جل جلاله.

ذلك أن القصد الأول من الصلاة -بل من العبادات كافة- هو تذكير الإنسان بربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدَّر فهدى.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] وقال رسوله عليه الصلاة والسلام: «إنما فُرِضَت الصلاة، وأُمر بالحج، وأُشعرَت المناسك، لإقامة ذكر الله تعالى»[1] وأشار

(١) رواه أبو داوود.

إلى روح الصلاة فقال: «إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع، وتضع يديك فتقول: اللهم.. اللهم. فمن لم يفعل فهي خداج»[1] أي ناقصة.

فهذا تنبيه على أهمية حضور القلب في الصلاة. وأما حضور العقل فحسبنا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فنبه بهذا التعليل على وجوب حضور العقل في الصلاة، فكم من مصل لا يعلم ما يقول في صلاته، وهو لم يشرب خمرًا، وإنما أسكره الجهل والغفلة وحب الدنيا واتباع الهوى!

ويقول ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

هذه هي الصلاة التي كانت قُرَّة عينه عليه الصلاة والسلام، والتي كان يحن إليها، ويتلهف عليها ويقول لبلال: أرحنا بها! هذه هي صلاة الأنس والحب، لا صلاة النقر والخطف، التي يؤديها كثير من المسلمين. وما أعظم الفرق بين من يقوم إلى صلاته وهو يقول: أرحنا «بها»، وبين من يقوم إليها وهو يقول: أرحنا «منها»!.

● سر تكرار الصلاة في اليوم

جعل الله الصلاة على المؤمنين كتابًا موقوتًا، أمرهم بإقامتها حين يمسون وحين يصبحون، وعِشيًّا وحين يظهرون. كررها خمس مرات في اليوم لتكون «حمّامًا» روحيًّا للمسلم يتطهر بها من غفلات قلبه، وأدران خطاياه. وقد مثَّل النبي ﷺ هذا المعنى في حديثه الشريف فقال: «أرأيتم لو أن نهرًا على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فهل يبقى على بدنه من درنه شيء». قالوا: لا. قال «كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[2] وأي إنسان يمر عليه يوم من غير خطايا وهفوات؟!.

لقد خُلق هذا الإنسان خلقًا عجيبًا، فيه من الملاك روحانيته، ومن البهيمة شهوتها، والسباع حميتها. وكثيرًا ما تغلبه الشهوة، ويستفزه الغضب، ويجذبه تراب الأرض الذي خُلق منه، فيقع في الأخطاء، ويتردى في الخطايا، وليس العيب أن يخطئ الإنسان، فكل بني آدم خطَّاء، ولكن العيب أن يتمادى في الخطأ، ويستمر في الانحدار، حتى يصير

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه بألفاظ مختلفة. (٢) متفق عليه.

كالأنعام أو أضل سبيلًا.

وفي الصلوات اليومية الخمس فرصة يثوب فيها المخطئ إلى رشده. ويفيق المغرور من سباته، ويرجع الإنسان إلى ربه، ويطفئ هذا السعار المادي الذي أججته المطامع والشهوات، ونسيان الله والدار الآخرة.

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلوات الله عليه: «إن لله ملكًا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم. . قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فأطفئوها»(١).

إنها نار موقدة، تطلع على الأفئدة، وتلفح القلوب والعقول. والصلاة هي مضخة الإطفاء التي تخمد هذه النار، وتمسح دخانها، وسوادها، وتغسل أثرها من بين جوانح الإنسان. ويوضح هذا ابن مسعود في حديثه الذي يقول: «تحترقون تحترقون، فإصا صليتم الصبح غسلتها ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها. ثم تنامون فلا تكتب عليكم حتى تستيقظوا»(٢).

ويصوِّر الرسول لأصحابه -بكل وسائل التوضيح- عمل الصلاة في محو الخطابا التي تبدر من الإنسان في صباحه ومسائه، فيروي لنا عنه سلمان الفارسي: أنه كان معه تحت شجرة فأخذ منها غصنًا يابسًا، فهزه حتى تحاتّ ورقه، ثم قال: «يا سلمان.. ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذه الأوراق» ثم تلا الآية الكريمة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤](٣).

وليس أثر الصلوات مقصورًا على هذا الجانب من غسل الأدران، وتكفير الخطايا،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط والصغير ورجال إسناده محتج بهم في الصحيح كما في «الترغيب».

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والصغير مرفوعًا وإسناده حسن ورواه كما في الكبير موقوفًا، وهو أشبه كما في الترغيب للمنذري.

(٣) الحديث رواه أحمد والنسائي والطبراني، ورواة أحمد محتج بهم في الصحيح إلا علي بن زيد. كما في الترغيب.

ومطاردة السيئات ، ولكنها تقوم بمهمة إيجابية أخرى ، فإنها للحظات خصبة مباركة ، تلك المرات الخمس التي ينتزع الإنسان فيها نفسه كل يوم من دنياه ، دنيا الطين والحمأ المسنون ، دنيا الأحقاد والصراع ، وتنازع البقاء أو تنازع الفناء ، ليقف بين يدي مولاه لحظات خاشعة يخفف بها من غلواء الحياة ، وضغط الطين والمادة الكثيفة على القلوب والأرواح.

إنها تقوم بتغذية ذلك الجزء العلوي الإلهي في كيان الإنسان ، وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر : ٢٩] ذلك الكائن الروحي الذي يعيش بين جوانح الإنسان ، لا يكفي لتغذيته علم العلماء ، ولا أدب الأدباء ، ولا فلسفة المتفلسفين ، ولا يغذيه إلا معرفة الله وحسن الصلة به. وهذه الصلوات الخمس هي وجبات الغذاء اليومي للروح ، كما أن للمعدة وجباتها اليومية ، ففي مناجاة العبد لربه في صلاته شحنة روحية تنير قلبه ، وتشرح صدره ، وتأخذ بيده من الأرض إلى السماء ، وتدخله إلى الله بلا باب ، وتقفه بين يديه بلا حجاب ، فيكلمه بلا ترجمان ، ويناجيه فيناجي قريبًا غير بعيد ، ويستعين به فيستعين بعزيز غير ذليل ، ويسأله فيسأل غنيًّا غير بخيل ، تكاد تشف روحه وتصفو نفسه ، فتسمع كلام الله الذي يقول : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي قسمين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ قال : الله عز وجل : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله : أثنى عليّ عبدي ، فإذا قال : ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ قال الله : مجدني عبدي ، فإذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1] ويُعَبِّر النبي ﷺ عن قوة الصلة بين العبد وربه في الصلاة فيقول : «إن الرجل إذا دخل في صلاته أقبل الله عليه بوجهه ، فلا ينصرف عنه ، حتى ينقلب أي يرجع- أو يحدث حدث سوء»[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه وقال البوصيري في الزوائد : رجال إسناده ثقات.

● الصلاة نظافة وتجمل

ولكن الصلاة في الإسلام ليست عبادة روحية فحسب. إنها نظافة وتطهر، وتزين وتجمل، اشترط الله لها تطهير الثوب والبدن والمكان من كل خبث مستقذر، وأوجب التطهر بالغسل والوضوء، فمفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الطهور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

لقد اعتبر الإسلام النظافة من الإيمان، روى قول الرسول ﷺ لأمته: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف»[1] «إن الله طيب يحب الطيب. نظيف يحب النظافة»[2] وأثنى القرآن على أهل مسجد قُباء -أي المسجد النبوي- لحرصهم على التنظف والتطهر: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقد أمر المسلم أن يأخذ زينته للصلاة. ويذهب إلى المسجد طيب الرائحة، حسن الملبس، مجتنبًا لكل ما يؤذي إخوانه من الروائح الكريهة أو الثياب المستقذرة، كما استحب له أن يتسوك عند كل صلاة: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[3].

وسن له يوم الجمعة أن يغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ما عنده ولا يمضي إلى المسجد في ثياب مهنته.

وهكذا كان المسلمون الأولون يفعلون. كان الحسن إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فسئل عن ذلك فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأحب أن أتجمل لربي. وهو تعالى يقول: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

هذا على حين كان القسيسون والرهبان في العصور الوسطى بأوربا يعدون الإهمال والقذارة من وسائل القربة إلى الله. والنظافة والتجمل من عمل الشيطان، حتى إن راهبًا أثنى

---

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه أحمد عن أبي بكر والشافعي وأحمد والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عائشة، وابن ماجه عن أبي أمامة. وعلقه البخاري بصيغة الجزم وصححه المنذري والنووي وغيرهما. كما في الفيض ٤/ ١٤٧.

على آخر فقال : يرحمه الله. . لقد عاش طول عمره ولم يقترف إثم غسل الرجلين![1].

● الصلاة رياضة بدنية

والصلاة تغمس في مقيمها الروح الرياضية ، وتقوي عضلات بدنه ، فهي تتطلب اليقظة المبكرة ، والنشاط الذي يستقبل اليوم من قبل طلوع الشمس ، وهي بكيفيتها المأثورة عن رسول الله ﷺ أشبه بالتمرينات الرياضية الفنية التي يقوم بها الرياضيون المحدثون ، لتقوية الجسم ورياضية أعضائه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقف في الصلاة وقفة معتدلة ، لا يطأطئ ولا يتماوت. وقد رأى عمر رجلًا يتماوت في صلاته فقال له : لا تُمت علينا ديننا أماتك الله. . ورأى آخر يطأطئ رقبته مظهرًا الخشوع فقال له : ارفع رأسك فإن الخشوع في القلوب ، ليس الخشوع في الرقاب.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام في ركوعه مستوى الظهر ، منتصب الساقين ، وإذا سجد جافى عضديه عن فخذيه ، وإذا خَرَّ من القيام للسجود أو نهض من السجود للقيام لم يعتمد على يديه.

وهكذا تكون الصلاة حركة وعملًا ، يشمل جوانب الشخصية كلها؛ فالجسم في الصلاة يعمل قائمًا قاعدًا. راكعًا ساجدًا ، واللسان يعمل قارئًا مكبرًا. مسبحًا مهللًا ، والعقل يعمل متدبرًا متفكرًا فيما يتلو أو يُتلى عليه من قرآن. والقلب يعمل مستحضرًا رقابة الله وخشيته وحبه والشوق إليه.

● الصلاة قوة روحية ونفسية

والصلاة الحقيقية التي يريدها الإسلام تمد المؤمن بقوة روحية ونفسية تعينه على مواجهة متاعب الحياة ومصائب الدنيا. ولذا قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٣] ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة : ٤٥، ٤٦].

---

(١) راجع ما كتبناه عن تطرف الرهبانية وعتوها في الباب السابق، تحت عنوان «التوازن بين المادية والروحية».

وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].

في الصلاة يفضي المؤمن إلى ربه بذات نفسه، ويشكو إليه من بثه وحزنه. ويستفتح باب رحمته، ويستنزل الغيث من عنده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

في الصلاة يشعر المؤمن بالسكينة والرضا والطمأنينة. إنه يبدأ صلاته بالتكبير فيحس بأن الله أكبر من كل ما يروعه ومن يروعه في هذه الدنيا، ويقرأ فاتحة الكتاب فيجد فيها تغذية للشعور بنعمة الله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وتغذية للشعور بعظمة الله وعدله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾. وتغذية للشعور بالحاجة إلى الصلة بالله وإلى عونه سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ وتغذية للشعور بالحاجة إلى هداية الله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة].

فلا عجب أن تمد الأرض المؤمن بحيوية هائلة. وقوة نفسية فياضة. وقد بيَّن الرسول ﷺ مبلغ الأثر النفسي للصلاة وما يسبقها من وضوء وذكر لله تعالى، وكيف يستقبل المؤمن المصلي يومه ويبدأ حياته الجديدة كل صباح. قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإذا هو قام فذكر الله انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدة ثانية، فإذا قام إلى الصلاة انحلت عقده الثلاث، فأصبح طيب النفس نشيطًا، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[2].

وفي عصرنا الحديث نرى من علماء الكون والحياة طبيبًا شهيرًا مثل الدكتور «الكسيس كاريل» يبين لنا في بحث له مدى هذه القوة التي يكتسبها المؤمن من الصلاة فيقول:

«لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت بوصفي طبيبًا كثيرًا من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا.

(١) رواه أحمد وأبو داوود وعن حذيفة: «كان إذا حزبه أمر صلى» وإسناده صالح. ومنه أخذ بعضهم ندب صلاة النازلة، وهي ركعتان عقبها، وكان ابن عباس يفعل ذلك، ويقول: نفعل ما أمرنا الله به بقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] كذلك في التيسير للمناوي جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٢) رواه البخاري.

تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم. إن الصلاة كمعدن «الراديوم» مصدر للإشعاع، ومولد ذاتي للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطبون القوة التي لا يفنى نشاطها.

إننا نربط أنفسنا حين نصلي، بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبسًا منها نستعين به على معاناة الحياة، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن تجد أحدًا ضرع إلى الله مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج»[1].

هذا في الصلاة عمومًا. فكيف بصلاة الإسلام؟.

● الصلاة قوة خلقية

وفي هذه القوة مدد أي مدد لضمير المؤمن يقويه على فعل الخير، وترك الشر، ومجانبة الفحشاء والمنكر، ومقاومة الجزع عند الشر، والمنع عند الخير، فهي تغرس في القلب مراقبة الله تعالى، ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقة في المواعيد، والتغلب على نوازع الكسل والهوى. وجوانب الضعف الإنساني. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣] ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما نرى من مصلين قد ضعفت أخلاقهم. أو انحرف سلوكهم فلابد أن صلاتهم جثة بلا روح، وحركات جسم بلا حضور عقل، ولا خشوع قلب، وإنما الفلاح للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢].

أما المتظاهرون بالصلاة دون أن ترق قلوبهم، أو تفتح للخير صدورهم. فما أحقهم بوعيد الله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

---

(١) من كتاب «دع القلق» لديل كارنيجي ص ٢٩٩ ط ثانية.

● صلاة الجماعة ومزاياها

والصلاة الإسلامية – بعد ذلك – تربية اجتماعية رشيدة، ومدرسة إنسانية عالية، على نسق فريد في تاريخ الأديان والعبادات.

فالإسلام لم يكتف من المسلم أن يؤدي الصلاة وحده في عزلة عن المجتمع الذي يحيا فيه، ولكنه دعاه دعوة قوية إلى أدائها في جماعة وبخاصة في المسجد، وهَمَّ الرسول ﷺ أن يحرق على قوم بيوتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات[1]. فإن لم تكن هذه الجماعة واجبًا فهي أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة[2] في نظر الإسلام.

روى مسلم عن ابن مسعود قال: «من سَرَّه أن يلقي الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهن، فإن الله تعالى شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، وإنكم لو صليتم في بيوتكم، كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد، إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، يرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها -أي صلاة الجماعة- إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يتهادى بين الرجلين يسندانه لمرضه حتى يُقام في الصف».

ولم يجعل الإعلام بدخول وقت الصلاة عن طريق ناقوس يدق، أو بوق ينفخ، أو نار تشتعل، كما في ديانات سابقة. وإنما اختار لها طريقًا آخر فيه معنى الشعار والهتاف والنشيد القومي المؤثر بقوة عباراته، وطريقة إلقائه، ونصاعة معانيه: ذلك هو الأذان: «الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة. حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله».

تنطلق بهذا النشيد الإلهي في وقت واحد حناجر المؤذنين من فوق مآذنهم. فيستجيب المؤمنون للنداء ويجتمعون خمس مرات في كل يوم في مسجد حيهم.

---

(١) الحديث في هذا متفق عليه.

(٢) جاء هذا في حديث متفق عليه.

ثم يجتمعون على نطاق واسع في صلاة الجمعة، تلك الفريضة الأسبوعية التي أوجب الله فيها الجماعة إيجابًا وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

ولم يبح التخلف عنها لغير عذر «من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طبع الله على قلبه»(١) «لينتهين قوم عن ودعهم - أي تركهم - الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»(٢).

وفي هذا الاجتماع الأسبوعي تعليم وتوجيه، وموعظة وتذكير، وتجديد للبيعة، وإحياء لعاطفة الأخوة، وتركيز للوحدة، وإظهار للقوة.

ثم يتسع النطاق أكثر في صلاة العيدين، فقد أراد الإسلام من هذه الصلاة أن تكون مؤتمرًا جامعًا، ومهرجانًا كبيرًا يجمع أهل البلد قاطبة في مكان واحد في الخلاء. يذهب إليها الرجال والنساء حتى ذوات العذر منهن.

عن أم عطية قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى: العواتق والحيّض وذوات الخدور، فأما الحيّض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسول الله. إحدانا لا يكون لها جلباب؟. قال: «لتلبسها أختها من جلبابها»(٣).

● الصلاة تربية عسكرية

وفي الجماعة نوع من التربية العسكرية التي قوامها الطاعة والنظام. وما أحوج الأمم الناشئة -كالعرب في أيام الرسول ﷺ- أن يتعلموا عمليًا طاعة الأمر، والانقياد للنظام، والخضوع للقانون، واحترام الرؤساء، وهذا ما تصنعه صلاة الجماعة.

وهل رأيت نظامًا أكمل وأجمل من صفوف الجماعة وقد وقفت مستقيمة فلا عوج، متلاصقة فلا فرجة: المنكب إلى المنكب، والقدم إلى القدم، ينذرهم إمامهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج، ويعلمهم أن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة وتمامها،

---

(١) رواه الخمسة: وحسنه الترمذي، كما رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما. (٣) متفق عليه.

ويحدثهم عن نبيهم : أن سدوا الفرج وسووا الصفوف ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

فإذا كبَّر الإمام كبِّروا ، وإذا قرأ أنصتوا ، وإذا ركع ركعوا ، وإذا سجد سجدوا ، وإذا سلَّم سلموا.

من خرج على هذا النظام فكأنما خرج على الإنسانية. يقول الرسول ﷺ : «ألا يخشى إذا ركع أحدكم أو سجد قبل الإمام أن يمسخ الله رأسه رأس حمار»(١).

لا يفسد هذا الحال إلا جندي من جنود إبليس. فهو الذي يسره الفوضى ويسوءه النظام : «الذي يركع ويسجد قبل الإمام إنما ناصيته بيد شيطان»(٢).

● المسجد ورسالته في الحياة

وبأداء صلاة الجماعة في المسجد خمس مرات في اليوم أصبح للمسجد مكانة هامة في الإسلام وفي حياة المسلمين فليس هو ديرًا لرهبنة ، ولا زاوية للمتعطلين ، ولا تكية للدراويش ، فليس في الإسلام رهبنة ولا دروشة ، ورسوله يقول لأبي ذر : «عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي»(٣).

ورضي الله عن عمر حين وجد جماعة في المسجد تلبثوا بعد صلاة الجمعة بدعوى التوكل على الله فعلّاهم بدرته ، وقال كلمته الشهيرة : «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة» إن الله يقول : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة : ١٠].

وقد روى البخاري : أن الحبشة كانوا يلعبون بحرابهم في مسجد النبي ﷺ ، والنبي ينظر إليهم ، ويُرى عائشة أم المؤمنين لعبهم. وكأن ذلك لم يعجب عمر لشدته وصلابته. فأهوى إلى الحصباء يحصبهم بها فقال : «دعهم يا عمر»!

وبهذا الحديث استدل العلماء على جواز اللعب بالحراب في المسجد ، وقالوا : إن المسجد موضوع لأمر جماعة المسلمين - فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه(٤).

---

(١) رواه الشيخان وأصحاب السنن.
(٢) رواه البزار والطبراني وإسناده حسن.
(٣) رواه ابن حبان والحاكم.
(٤) إن المسجد في الإسلام موضع للصلاة، ولكل أمر يهم جماعة المسلمين.

قالوا: «واللعب بالحراب ليس لعبًا مجردًا، بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو. .»[1].

وما كان المسجد في فجر الإسلام إلا جامعة شعبية للتثقيف والتهذيب، وبرلمانًا محليًّا للتشاور والتفاهم، ومجمعًا للتعارف والتحاب، ومعهدًا للتربية العملية الساسية.

● المسجد جامعة شعبية

وأي جامعة شعبية كالمسجد تسع الجميع في رحابها، في الليل والنهار والصيف والشتاء، ولا ترد طالبًا شيخًا كان أم صبيًّا، ولا تشترط رسومًا ولا تأمينًا، ولا تضع قيودًا ولا عراقيل؟

أي جامعة كهذه تُعَلِّم قواعد العقائد، وفرائض العبادات، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، وطرائق المعاملات، وتُعقد فيها للعلم حلقات تغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة؟

ولم تكن حلقات المساجد مقصورة على العلم الديني المحض، بل شملت كل ما وصل إليه العقل الإسلامي من معارف أدبية وإنسانية. فمنذ صدر الإسلام نرى حلقة كحلقة حَبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس تتسع لعلوم ومعارف مختلفة يُفرد لكل منها يومًا. ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام موصولًا بالعبادة، وأن ترعرعت «الجامعات» العريقة، تحت سقوف «الجوامع». ومن منا يجهل المكانة العلمية لجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس؟ وما قدَّمته هذه الجوامع أو الجامعات من خدمة للعلم والثقافة قرونًا طويلة؟ ! .

● المسجد برلمان دائم

وأي برلمان كهذا المسجد. ونوَّابه هم ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾

[التوبة: ١١٢].

---

(١) انظر: نيل الأوطار للشوكاني.

برلمان يعرض فيه الحاكم سياسته ، ويحدد منهجه ويناقشه الشعب ويستجوبه بلا حجر ولا خوف. وهل سمعنا خطبة سياسية جامعة موجزة لرئيس دولة كالخطبة التي ألقاها أبو بكر يوم ولي الخلافة فقال : إيها الناس. . إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

بيان ألقاه خليفة ، يقول فلا يكذب ، ويعد فلا يخلف ، وسمعته أُمة تسمع ولا تنسى ، وتُحاسب فلا تخشى ، وكيف يخلف الخليفة أو تنسى الأمة ، وبرلمانها يعقد كل يوم خمس جلسات ، ولا يغلق بابه في عطلة أو إجازة؟

● المسجد مؤتمر

وأي مجتمع أو مؤتمر كالمسجد يجمع خلاصة الحي في كل صلاة ، وصفوة البلد في كل جمعة ، فإن الإسلام - كما ذكرنا - قد ندب إلى صلاة الجماعة ، وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، وهَمَّ الرسول ﷺ أن يحرق على قوم بيوتهم ، لأنهم يتخلفون عن الجماعات.

دعا الإسلام أبناءه إلى الجماعة ليتعارفوا فلا يتناكروا ، ويتقاربوا فلا يتباعدوا ، ويتحابوا فلا يتباغضوا ، ويتصافوا فلا يتشاحنوا.

لقد عرف أسلافنا قيمة المسجد - بوصفه مؤتمرًا حافلًا - فكانوا يعقدون فيه عقود زواجهم امتثالًا للحديث الشريف : «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد ، واضربوا عليه بالدف»[1].

ولو أن مسلمي اليوم اتخذوا سلفهم أسوة في ذلك ، لوفروا على أنفسهم نفقات طائلة تضيع في أحفال براقة ، تُبعثر فيها الأموال ابتغاء السمعة والتظاهر والتنافس الأجوف.

---

(١) قال في كشف الخفاء: رواه الترمذي عن عائشة وضعفه، لكن له شواهد، فيكون حسنًا لغيره، بل صحيحًا. ج ١ ص١٤٥ .

● المسجد معهد للتربية العلمية

وإن سئلت فقل هو حقل تجرب في ساحته تعاليم الدين النظرية، وتوضع مبادئه الإنسانية موضع التنفيذ.

فقد كان من مزايا هذا الدين الخالد أنه لم يجعل مبادئه فكرة مجردة في الرأس، أو كلمة تجرى على اللسان، ولكنه ربطها بحياة المسلم ونظامه اليومي ربطًا لا ينفك عنه.

فالحرية والإخاء والمساواة التي جاء بها الإسلام -قبل ثورة فرنسا باثني عشر قرنًا- تراها في المسجد حقائق عملية، وأعمالًا حقيقية، تعلن عن نفسها بلا صوت ولا حرف ولا ضجيج.

● الحرية

أما الحرية فأي حرية أعز من حرية المصلي في المسجد وهو طليق من كل عبودية إلا لله، له وحده يركع ويسجد، ولوجهه وحده يذل ويخشع، أما البشر مهما تعاظموا فهم عبيد مثله لا سلطان لهم عليه ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

تلك هي حرية الضمير الإنساني أولى الحريات وأعمقها.

وأما حرية الرأي والنقد فحسبك أن الإمام إذا أخطأ في قول أو فعل من أقوال الصلاة وأفعالها، كان على من وراءه من المصلين أن يصلحوا له الخطأ، وأن يردوه إلى الصواب، يستوي في ذلك الشيخ والشاب والغلام، والرجل والمرأة، فإذا هذا يصحح قراءته، وذاك يقول له: سبحان الله، وتلك تصفق بيدها. . حتى يعود إلى الحق والسداد.

فإذا اعتلى الخطيب منبر المسجد فليس «ديكتاتورًا» يفرض على الناس ما يرى من آراء. ولكنهم شركاؤه في المسئولية، عليهم أن ينبهوه إذا غفل، وأن يذكروه إذا نسى، ويسددوه إذا انحرف عن الصراط المستقيم. ولو كان هو خليفة المسلمين.

أراد أمير المؤمنين عمر أن يضع حدًّا أعلى للمهور، فأعلن ذلك في المسجد فعارضته امرأة، وقالت: كيف هذا وقد قال الله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠] فما كان من الخليفة إلا أن رجع عن رأيه وقال في صراحة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»!

● الإخاء

وأما الإخاء فحسبك أن المسجد يضم أهل الحي في كل يوم خمس مرات، تتلاصق فيها الأبدان، وتتعارف فيها الوجوه، وتتصافح فيها الأيدي، وتتناجى فيها الألسن، وتتآلف فيها القلوب. ويلتقون على وحدة الغاية والوسيلة. وأي وحدة أبلغ وأعمق من وحدة المصلين في الجماعة يصلون خلف رجل واحد هو (الإمام) ويناجون ربًّا واحدًا هو (الله) ويتلون كتابًا واحدًا هو (القرآن) ويتجهون إلى قبلة واحدة هي (الكعبة) البيت الحرام، ويؤدون أعمالًا واحدة من قيام وقعود، وركوع وسجود.

وحدة نفذت إلى اللباب ولم تكتف بالقشور، وحدة في النظرة والفكرة، وحدة في الغاية والوجهة، وحدة في القول والعمل، وحدة في المخبر والمظهر. وحدة يشعرون فيها بروح الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وأي صورة أروع من المسجد النبوي في المدينة، وقد ضم في حناياه أجناسًا شتى من غير العرب، من رومي كصهيب، وفارسي كسلمان، وحبشي كبلال، كما ضم قبائل متباينة من العرب، من قحطانيين كالأنصار، وعدنانيين كالمهاجرين. وفي هذه القبائل بطون طالما فرقت بينها العداوة والبغضاء في الجاهلية كالأوس والخزرج.

ضم المسجد هؤلاء إلى صدره الحنون، وجمعهم في رحابه الفيحاء، فكانوا بنعمة الله إخوانًا، ينام أحدهم على الطوى ليشبع أخوه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ويبيت على صفاء من الغل والشحناء والسخط والكراهية، حتى لا ترتد عليه صلاته، ولا يقبلها الله منه. ففي الحديث: «ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: رجل أمّ قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[1] - أي متشاحنان. ومعنى هذا أن الصلاة المقبولة لا تلائم جو الكراهية والسخط والشحناء. بحال من الأحوال.

---

(١) رواه ابن ماجه، وإسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال البوصيري في الزوائد.

● المساواة

وأما المساواة فأي مساواة أوضح من تلك التي نراها في الصفوف المتراصة في المسجد؟ الأمير إلى جانب الخفير، والغني بجوار المسكين، والسيد ملاصق للخادم، والعالم الفيلسوف، وعن يمينه عامل، وعن شماله فلاح؟ !

فليس للمسجد لائحة تخصص الصف الأول للوزراء، والصف الثاني للنواب، والثالث للمديرين أو موظفي الدرجة الأولى أو كبار الملّاك.

وإنما الجميع سواسية كأسنان المشط الواحد. فمن بكّر في الذهاب إلى المسجد احتل مكانته في مقدمة الصفوف أيًّا كانت منزلته وعمله في الناس.

ويقول الدكتور محمد إقبال : إن اختيار قبلة واحدة للمسلمين أُريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة، وهيئتها على العموم تحقق الإحساس بالمساواة الاجتماعية وتقوّي أواصره، بقدر ما تتجه إلى القضاء على الشعور بالطبقات أو تفوّق جنس من المتعبدين على جنس آخر.

إن ثورة روحية هائلة تحدث لو حمل البرهمي الأرستقراطي المختال في جنوب الهند على الوقوف مع المنبوذ كتفًا إلى كتف في كل يوم!! إن وحدة الذات المحيطة بكل شيء، التي تخلق جميع الذوات وتكتب لها البقاء، هي التي تصدر عنها الوحدة الضرورية لجميع البشر، وانقسام البشر إلى أجناس وأمم وقبائل قُصد به -كما جاء في القرآن- سهولة التعارف لا غير.

وعلى هذا فإن صلاة الجماعة في الإسلام إلى جانب ما لها من قيمة فكرية تشير إلى الأمل في تحقيق الوحدة الضرورية للبشر. كحقيقة من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التي ميزت بين إنسان وآخر»[1].

ولم يملك كثير من المستشرقين أنفسهم من الإعجاب بالصلاة الإسلامية، وتأثيرها العميق في النفس البشرية وبخاصة صلاة الجماعة التي تميز بها الإسلام والتي توحي بأسمى

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال ترجمة عباس محمود ص ١٠٨.

المبادئ الإنسانية والاجتماعية التي لم يعرفها غير المسلمين إلا في عصر قريب.

من ذلك ما قاله الفيلسوف الفرنسي «رينان» -على الرغم مما له من شطحات عن الإسلام والعرب- : «إنني لم أدخل مسجدًا من مساجد المسلمين من غير أن أهتز خاشعًا وأن أشعر بشيء من الحسرة على أني لست مسلمًا»! ومن ذلك ما قاله السير «توماس أرنولد» عن الصلاة : «هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية ، فكثيرًا ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد الشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس» ثم نقل عن بعض الأساقفة كلامًا عن روعة الصلاة في الإسلام ، ثم قال «أرنولد» : «ولننتقل من صلاة الفرد إلى صلاة الجماعة فنقول : إنه لا يتأتي لأحد يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل في وسط المسجد الجامع بمدينة «دلهي» بالهند يوم الجمعة الأخيرة من الصيام «رمضان» وكلهم مستغرقون في صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية في كل حركة من حركاتهم ، نقول : إنه لا يتأتي لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد ألا يبلغ تأثره به أعماق قلبه وألا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها.

على أن توقيت الأذان اليومي للصلاة بأوقات معينة حينما يرن به صوت المؤذن ، في أبكر البكور قبل الإسفار ، وعند الظهيرة والناس مضطربون ومصطخبون في أعمالهم ، وعند الإمساء. . هذا الأذان الذي يحصل في هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه»[1].

● مسجد الرسول في المدينة

عرف رسول الله ﷺ خطر المسجد في الحياة الإسلامية فكان أول مشروع فكر فيه في مدة إقامته القليلة في بني سالم بن عوف وهو في طريقه إلى المدينة - أن بنى مسجد قُباء ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة : ١٠٨].

وكان أول مؤسسة أنشأها بعد استقراره بالمدينة أن بنى مسجده العظيم.

---

(١) من كتاب «الدعوة إلى الإسلام» ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وزميله.

وكان يعمل فيه بيده ، ويحمل أحجاره بنفسه ، وهو يقول :

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة. فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وكان أصحابه يعملون وهم ينشدون :

لا يستوى من يعمر المساجدا يعمل فيها قائمًا وقاعدًا
ومن يرى من الغبار حائدًا

فكان هذا المسجد النبوي مدرسة الدعوة الإسلامية الأولى ، ودار الدولة الإسلامية الكبرى.

تلك المدرسة التي فتحت أبوابها لمختلفي الأجناس من عرب وعجم ، ومختلف الألوان من بيض وسود ، ومختلفي الطبقات من أغنياء وفقراء. ومختلفي الأسنان من شيوخ وشباب وغلمان.

وفسحت صدرها للمرأة تحضر الجماعة ، وتشهد دروس العلم ، في عصر كانت المرأة مخلوقًا لا حق له في العلم ، ولا في مشاركة الرجل الحياة.

مدرسة تلقن العلم والعمل ، وتطهر الروح والبدن ، وتبصر بالغاية والوسيلة ، وتعرف الحق والواجب ، وتعني بالتربية قبل التعليم ، وبالتطبيق قبل النظريات ، وبتهذيب النفوس قبل حشو الرؤوس.

فلا غرو أن تُخرِّج من الخلفاء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ، ومن القواد أمثال أبي عبيدة وخالد وعمرو ، ومن القرَّاء أمثال ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ، ومن العلماء أمثال زيد ابن ثابت وابن عباس ، ومن فضليات النساء أمثال فاطمة وعائشة وحفصة وأم عمارة وأم سليم.

كان المسجد المحمدي مدرسة الدعوة ، وكان كذلك دار الدولة. فيه يهيئ النبي العمل للعاطل ، والعلم للجاهل ، والمعونة للفقير ، ويرشد إلى الأمور الصحية والاجتماعية. ويذيع الأنباء التي تهم الأمة ، ويلتقي بسفراء الدول ، ويرتب جنود المعارك في الحرب ، ويبعث الدعاة والمندوبين في السلم.

هكذا كان المسجد في عهد الرسول ﷺ، وظل كذلك في عهد أصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أيستطيع بعد ذلك منصف أن يدَّعي أن الصلاة ابتهال روحي مجرد بعيد عن الحياة، أو عمل سلبي لا تأثير له في توجيهها وترقيتها؟ كلا. .

ونختتم حديثنا عن الصلاة والمسجد بكلمة قيمة لباحث مسلم، قال:

«في المسجد تختفي فوارق المكانة والثروة والجنس واللون، ويعم أرجاءه جو قشيب من الإخاء والمساواة والمحبة، وإنه لأيم الحق لنعمة كبرى أن يكون في مكنة الإنسان التمتع خمس مرات يوميًّا بجو من السلام التام وسط عالم يسوده الصراع والنضال. . وبجو من المساواة على حين يكون التباين هو النظام السائد. . وبجو من المحبة في معمعة الأحقاد الوضعية والتنابذات والخصومات المفعمة بها الحياة اليومية.

إنها حقًّا لأجزل النعم، لأنها العبرة الجليّ من الحياة، فليس للإنسان بد من أن يعمل وسط التباين والنضال والصراع، ووسط مشاهد البغضاء والتشاحن، ومع ذلك ينتزع المرء نفسه من كل هذا خمس مرات ليكتنه حقيقة المساواة والإخاء والمحبة، من حيث أنها هي المصادر الحقيقية للسعادة الإنسانية.

ومن أجل ذلك كان الوقت الذي تستغرقه الصلاة غير مضيع عبثًا من ناحية الخيرية الفاعلية، والنفع العملي للبشرية، إذ أنه على العكس من ذلك قد استغل أحسن استغلال بتعلم تلك الدروس الجليلة التي تجعل الحياة حقًّا جديرة بالعيش فيها.

وتلك الدروس في الإخاء والمساواة والمحبة تصبح بممارستها عمليًّا في الحياة اليومية دعامات لتوحيد الجنس البشري وتخليد الحضارة الأبدية لبني الإنسان».

* * *

الزكاة

الزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية الهامة.

وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وطورًا بلفظ الصدقة، وأحيانًا بلفظ الإنفاق.

وفي مفتتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين ينتفعون بهدي كتابه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣] وفي آيات أخر من السورة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

● الزكاة في الديانات السابقة

وهي في معناها البسيط -معونة الفقير بجزء من المال- عبادة قديمة عُرفت في الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله في وصاياه إلى رسله وفي وصايا رسله إلى أممهم. فيقول عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ويمتدح إسماعيل بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مريم: ٥٥].

ويذكر الله في مواثيقه لبني إسرائيل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ

ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢].

ويقول على لسان المسيح وهو في مهده ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

ويقول في شأن أهل الكتاب عامة ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٤، ٥].

هذه هي الزكاة في ديانات السماء، وما كان لهذه الديانات أن تنسى هذا الجانب الخلقي من رسالتها: جانب البر بالفقراء والإحسان بالمساكين.

● في العهد المكي

ومنذ فجر الإسلام في مكة والمسلمون أفراد معدودة مُستَخفُونَ بدينهم، مضطهدون في ديارهم، كان هذا الجانب الإنساني الاجتماعي موضع عناية بالغة من القرآن العزيز، فالعقبة التي على كل إنسان أن يجتازها حتى يصل إلى رضاء الله تتمثل في البر بالناس من تحرير للرقيق، وإطعام للمسكين واليتيم ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١١-١٨].

وفي سورة الضحى وهي من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى: ٩، ١٠] وفي سورة المدثر يسجل القرآن اعتراف المجرمين في النار. ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المدثر: ٤٣، ٤٤] وفي سورة الذاريات في وصف المتقين ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٩] وفي سورة المعارج ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] وفي سورة القلم يقص الله على المسلمين قصة أصحاب الجنة الذين اعتزموا أن يقطفوا ثمارها

بليل، ليحرموا منها المساكين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩، ٢٠] وفي سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣] وفي سورة الحاقة يعلل جزاء من يُسجر في الجحيم ويُسحب في السلاسل والأغلال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤] وفي سورة فصلت ينذر الله المشركين بالويل ويجعل من أخص أوصافهم عدم إيتاء الزكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾ [فصلت: ٦، ٧] وفي سورة الشورى يمدح الله المجتمع المؤمن: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: ٣٨] وفي سورة الأنعام: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وفي سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] هذه بعض عناية القرآن الملحة بالبر ورعاية المسكين. وأداء حق السائل والمحروم.

● الزكاة الإسلامية نظام مبتكر

ولكن الزكاة الإسلامية المعروفة شيء يزيد على البر والإنفاق العام. والزكاة المطلقة التي شُرعت في العهد المكي، بل شرعت في الديانات السابقة كما ذكر القرآن. الزكاة التي شرعت في العهد المدني تشريع جديد، لم يسبق إليه دين سماوي، ولا تنظيم أرضي.

إنها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وإيتاؤها -مع إقامة الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة- عنوان على الدخول في الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

إنها فريضة لازمة يكفر من جحدها، ويفسق من منعها، ويقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها. وحسبنا أن الخليفة الأول أبا بكر جهز أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته الشهيرة: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. والله

لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه».

والزكاة في الإسلام ليست «تبرعًا» يتفضل به غني على فقير أو يحسن به واجد إلى معدوم. إنها أبعد من ذلك غورًا، وأوسع أفقًا.

إنها جزء هام من نظام الإسلام الاقتصادي، ذلك النظام الفريد الذي عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجه عام، قبل أن تعرف الدنيا نظامًا عني بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان.

حدَّد الإسلام الأموال التي تجب فيها الزكاة والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة، ومتى تجب الزكاة على المال، والمقدار الذي يجب إخراجه على كل منها.

فهناك مال يجب فيه العشر كالزروع التي يخرجها الله من الأرض بغير جهد يُذكر من الإنسان. . فإن كانت تُسقى بالآلات كان فيها نصف العشر، وهذه الزكاة تجب في كل زرعة.

وهناك مال يجب فيه ربع العشر (٢,٥ بالمئة) كالنقدين -الذهب والفضة- وعروض التجارة مقوّمة بأحد النقدين. وهذه الزكاة تجب في المال كلما حال عليه الحول- اثنا عشر شهرًا قمريًّا.

وهناك مال يتمثل في الحيوانات مثل الإبل والبقر والغنم وقد وضع الإسلام لها نظامًا خاصًّا.

والحكمة في تفاوت المقادير المطلوبة من الزكاة: أنه كلما كان جهد الإنسان في المال أقل. وعمل القدرة الإلهية أظهر، كانت النسبة الواجبة أكثر. . والعكس بالعكس.

ولقد التفت إلى ذلك الإمام ابن القيم ونبّه عليه في «زاد المعاد» فقال: «إنه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها، وسهولة ذلك ومشقته، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعًا محصلًا من الأموال، وهو الركاز -وهو الكنوز المدفونة من عهود بعيدة (ومثله المعدن كالحديد والذهب والنحاس وغيرها)- ولم يعتبر له حولًا، بل أوجب فيه الخمس متى ظُفِرَ به.

وأوجب نصفه -وهو العشر- فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك في الثمار والزروع، التي باشر حرث أرضها وبذرها، ويتولى الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ولا شراء ماء، ولا إثارة بئر ودولاب.

وأوجب نصف العشر فيما تولى العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح -المواشي- وغيرها وأوجب نصف ذلك -وهو ربع العشر- فيما كان النماء فيه موقوفًا على عمل متصل من رب المال بالضرب في الأرض تارة وبالإدارة تارة، وبالتربص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار. وأيضًا فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة فكان واجبها أكثر من واجب التجارة[1]. وظهور النمو فيما يُسقى بالماء أكثر مما يُسقى بالدوالى والنواضح. .».

وقد أعفى الإسلام من ضريبة الزكاة المال القليل، وجعل لكل نوع من المال نصابًا معينًا أو حدًّا أدنى لا تجب الزكاة إلا فيما زاد عنه وفضل عن حاجة صاحبه.

ولعل هذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

غير أن الإسلام لم يرفع هذا الحد الأدنى بحيث لا تجب الزكاة إلا على أرباب الثروات والقناطير. وإنما جعله بحيث يتيح الفرصة لمعظم المسلمين أن يُسهموا في تأمين المجتمع، ومواساة الضعفاء، وحماية المصالح العامة للمسلمين.

● الزكاة تجبيها الدولة

فلا يذهبن الظن بأحد أن الزكاة من الغني تفضل وامتنان، ومن الفقير «شحاذة» وهوان، فليس بين الغني والفقير تعامل مباشر في الزكاة كما شرعها الإسلام: وإنما الحكومة هي نائبة عن الفقير في أخذ الزكاة من الأغنياء.

ولهذا قال تعالى لرسوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه واليًا ومعلمًا إلى اليمن: «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد إلى فقرائهم»[2].

---

(١) هذا غير مسلم دائمًا فقد يدور رأس المال في التجارة أكثر من مرة ويحقق ربحًا كثيرًا، لهذا كانت الزكاة في التجارة على رأس المال والربح وفي الزرع على الغلة وحدها.

(٢) رواه الشيخان.

وأول ما يدل عليه هذا التعليم النبوي «أن الزكاة في نظر الإسلام ليس إلا صرف بعض أموال الأمة، ممثلة في أغنيائها، إلى الأمة نفسها ممثلة في فقرائها. وبعبارة أخرى: ليس إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهي اليد المشرفة التي استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرف فيه -وهي يد الأغنياء- إلى اليد الأخرى، وهي اليد العاملة الكادحة التي لا يفي عملها بحاجتها، أو التي عجزت عن العمل وجُعل رزقها فيه ومنه، وهي يد الفقراء»[1].

الحكومة هي التي تجبي الزكاة[2] وقد أكد الإسلام ذلك فجعل ضمن مصارفها سهمًا لجباتها «العاملين عليها». وإنما وَكَّلَ الإسلام جباية الزكاة إلى الدولة لا إلى ضمائر الأفراد وحدها لعدة أسباب:

أولًا: أن كثيرًا من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يصيبها السقم والهزال، فلا ضمان للفقير إذا تُركَ حقه لمثل هؤلاء.

ثانيًا: في أخذ الفقير حقه من الدولة لا من الغني حفظ لكرامته وصيانة لماء وجهه أن يُراق بالسؤال إلى ذي مال.

ثالثًا: إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير، على حين يغفل عن آخر، فلا يفطن له أحد، وربما كان أشد فقرًا.

رابعًا: إن صرف الزكاة ليس مقصورًا على الفقراء أو الأفراد فمن الجهات التي تُصرف فيها الزكاة مصالح عامة للمسلمين لا يُقدِّرها الأفراد، وإنما يُقدِّرها أولوا الأمر في الجماعة المسلمة، كإعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله[3].

● بيت المال ملك الأمة

وإلى أين تذهب أموال الزكاة بعد جمعها وجبايتها؟

إنها تذهب «إلى بيت المال» وهو الخزانة العامة التي تُجمع فيها موارد الدولة الإسلامية

---

(١) من كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ شلتوت.

(٢) نص العلماء على أن الإمام أو السلطان إذا كان جائرًا لا يضع الصدقات في مصارفها الشرعية فالأفضل لمن وجبت عليه أن يؤديها لمستحقيها بنفسه.

(٣) لزيادة الاستيضاح انظر كتابنا «فقه الزكاة» جـ ٢ باب «طريقة أداء الزكاة» فصل «علاقة الدولة بالزكاة» ص ٧٤٧ - ٧٩١.

من زكاة وفيء وغنائم وخراج وغيرها، وإن كانت الزكاة تختص ببيت مال مستقل، ولا تخلط ببيوت المال الأخرى، حتى يبقى حق الفقراء مضمونًا، ونصيبهم مصونًا، فلا تطغى عليه حاجات المصارف الأخرى العامة ومطالبها. وهذا ما جرى عليه العمل ونص عليه جمهور الفقهاء.

وقد زعم بعض خصوم الإسلام أن للخلفاء المسلمين أن ينفقوا من بيت المال ما يشاءون فيما يشاءون وكأنه خزانة خاصة لهم. وهو زعم لا أساس له من تعاليم الإسلام. فبيت المال لجماعة المسلمين، والخليفة أو السلطان إنما هو خازن أمين، وليس له منه إلا ما يستحقه من راتب بالمعروف، هذا هو مسلك الراشدين المهديين الذين أمرنا الرسول ﷺ أن نتبع سنتهم وأن نعض عليها بالنواجذ.

فهذا أبو بكر الصديق حين بويع بالخلافة ذهب إلى السوق كعادته ليتاجر ويقوت نفسه وأهله، فلقيه عمر فقال له: إلى أين؟ قال: إلى السوق. قال عمر: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: من أين أطعم عيالي؟ فقال عمر: انطلق يفرض لك أبو عبيدة أمين بيت المال. . فانطلق إلى أبي عبيدة فقال للخليفة: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيف: إذا أخلقت شيئًا رددته وأخذت غيره! !

وهذا عمر يقول: «ألا أخبركم بما أستحل من مـال الله؟ حلتين: حلة الشتاء والقيظ -الصيف- وما أحج عليه وأعتمر من الظهر -الركوبة- وقوت أهلي كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا أفقرهم. ثم أنا رجل من المسلمين يصيبني ما يصيبهم».

ويروى عنه أنه قال: إنما أنا وهذا المال كولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

ويرسل عمر إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم، فقال عبد الرحمن: أتستسلفني وعندك بيت المال؟ ألا تأخذ منه ثم ترده؟ فقال عمر: إني أتخوف أن يصيبني قدري فتقول أنت وأصحابك: اتركوا هذا لأمير المؤمنين، حتى يؤخذ من ميزاني يوم القيامة، ولكني أتسلفها منك لما أعلم من شحك، فإذا مت جئت فاستوفيتها من ميراثي»!

وهذا عليٌّ يدخل عليه بعض الناس فلا يجد عليه إلا قطيفة خَلقة، وهو يرعد فيها من البرد، فيقول: يا أمير المؤمنين. إن الله تبارك وتعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا، وأنت تفعل هذا بنفسك! فقال: إني والله ما أرزؤكم شيئًا»[1].

فمن ذا الذي يزعم بعد ذلك أن الزكاة تجمع في بيت المال لينفقها الخلفاء والحكام فيما يشتهون؟!

على أن هدي الإسلام في الزكاة أن توزع أولًا في الأقاليم التي جمعت منها. كما نبهت على ذلك السنة: «تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم»[2] وعن عمران بن حصين أنه استعمل على الصدقة فلما رجع قيل له: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتني؟ أخذناه من حيث كنا نأخذه على عهد رسول الله ﷺ ووضعناه حيث كنا نضعه»[3].

فإذا فضل شيء من الزكاة عن حاجة أهل البلد جاز نقله إلى من يستحقه في مكان آخر أو إلى بيت المال المركزي. وقد روى أبو عبيد: أن معاذًا بعث إلى عمر من اليمن بثلث الزكاة، فأنكر ذلك عمر وقال: لم أبعثك جابيًا، ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فترد على فقرائهم، فقال معاذ: ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحدًا يأخذه مني[4].

فليس من سياسة الإسلام أخذ الأموال من القرى لتنفق على العواصم الكبرى، وإنما تنفق الزكاة حيث جمعت، وهذا ما يقضي به العدل، وحسن التنظيم والتوزيع، وإشعار الفقير في كل بلد بأن له نصيبًا في هذا المال الذي يراه فيحرص عليه. وهذا ما جعل الناس في عصرنا ينتبهون إلى نظام «الإدارة المحلية» وينتفعون بمزاياه.

● فيم تصرف الزكاة؟.. وإلى من؟

هذا إلى أن الإسلام قد حدد الجهات التي تصرف إليها وفيها الزكاة، فلم يدعها لأهواء الحاكمين ينفقون منها على مظاهر الترف لهم، أو على الأتباع والأنصار من حولهم، ولم

---

(١) هذه الآثار عن موقف الخلفاء من بيت المال ذكرها أبو عبيد في الأموال ص ٢٦٦ وما بعدها.
(٢) رواه الشيخان وقد تقدم. (٣) رواه أبو داوود.
(٤) الأموال.

يدعها كذلك لرغبات الطامعين فيها وهم لا يستحقونها.

وفي عهد رسول الله ﷺ تطلعت أعين جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وسال لعابهم لأخذها. وفيهم قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ثم بين الله تعالى مصارف الزكاة بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

وهكذا تولى الله بنفسه في كتابه توزيع الزكاة، فليس لبشر بعد ذلك أن يحولها عن مصارفها الثمانية إلى مصارف تخدم هواه ما أنزل الله بها من سلطان.

أول هذه المصارف -أو الأصناف- هم «الفقراء» **وثانيهما** «المساكين» وهم صنفان لنوع واحد من المستحقين من أهل الفاقة والاحتياج. وإذا ذكر أحدهما منفردًا في نص أريد به ما يشمل الآخر، فإذا اجتمعا -كما في هذه الآية- فالأرجح أن يراد بالفقير المحتاج الذي لا يملك شيئًا أو يملك ما دون النصاب. والمسكين محتاج أحسن حالًا وأكثر تجملًا وسكونًا من الصنف الآخر.

ويقول رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف. اقرأوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] - وفي رواية: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»[1].

وهذا الحديث يكشف لنا النقاب عن مسألة هامة، فكثيرًا ما يحصر الناس صورة المسكين أو الفقير أو ذلك الشخص المشهور بالفقر، المتظاهر بالمسكنة، المادّ يده

(١) متفق عليه.

بالسؤال. ولكن المسكين الذي نبه رسول الله الناس عليه يشمل كثيرًا من أصحاب البيوت، وأرباب الأسر المتعففين، الذين أخنى عليهم الزمن، أو ضاقت موارد رزقهم عن سد حاجاتهم، أو كان دخلهم من عملهم لا يكفي مطالبهم المعقولة. فلا بأس أن يُعطى هؤلاء من مال الزكاة. ولقد سأل رجل الحسن البصري عن الرجل تكون له الدار والخادم، أفيأخذ الصدقة؟ قال: يأخذ الصدقة إن احتاج ولا حرج! !

وليس المقصود أن يعطى درهمًا أو درهمين، فيظل دائمًا محتاجًا خاوي الكفين، وإنما المقصود أن يعطى ما يسد عوزه، ويقضي حاجته. قال عمر: إذا أعطيتم فأغنوا. . وأعطى رجلًا ثلاثًا من الإبل ليغنيه من العيلة، حيث ذكر له هلكة عياله. وقال: كرروا عليه الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل. وقال القاضي عبد الوهاب: لم يحد مالك لذلك حدًّا! فإنه قال: يُعطى من له المسكن والخادم والدابة - الذي لا غنى له عنه.

فالأولى أن يعطى التاجر ما يستأنف به تجارته. ويعطى الصانع ما يشترى به أدوات صنعته. . وهكذا. . قال الفقيه التابعي الجليل عطاء: إذا أعطى الرجل زكاة ماله أهل بيت من المسلمين فجبرهم فهو أحب إلي.

وقد قال أبو عبيد - في كتابه القيم «الأموال» - بعد أن ذكر هذه الآثار وغيرها عن الصحابة والتابعين: فكل هذه الآثار دالة على أن مبلغ ما يعطاه أهل الحاجة من الزكاة ليس له وقت - أي حد - محظور على المسلمين ألا يعدوه إلى غيره، وإن لم يكن المعطى غارمًا، بل فيه المحبة والفضل، إذا كان ذلك على جهة النظر من المعطي بلا محاباة ولا إيثار هوى، كرجل رأى أهل بيت من صالحي المسلمين أهل فقر ومسكنة، وهو ذو مال كثير، ولا منزل لهؤلاء يأويهم ويستر خلتهم فاشترى من زكاة ماله مسكنًا يكنهم من كلَب الشتاء وحر الشمس. أو كانوا عراة لا كسوة لهم - فكساهم ما يستر عوراتهم في صلاتهم ويقيهم من الحر والبرد. أو رأى مملوكًا عند مليك سوء قد اضطهده وأساء ملكته، فاستنقذه من رقه، بأن يشتريه فيعتقه، أو مر به ابن سبيل بعيد الشقة، نائي الدار، قد انقطع به، فحمله إلى وطنه وأهله بكراء أو شراء.

«هذه الخلال وما أشبهها، التي لا تُنال إلا بالأموال الكثيرة، ولم تسمح نفس الفاعل أن يجعلها نافلة، فجعلها من زكاة ماله، أما يكون هذا مؤديًا للفرض؟ بلى. . ثم يكون محسنًا إن شاء الله. وإني لخائف على من صدَّ مثله عن فعله، لأنه لا يجود بالتطوع، وهذا يمنعه بفتياه من الفريضة، فتضيع الحقوق ويعطب أهلها».

وليست الزكاة تشجعيًا للبطالة، ومعاونة لطائفة مرتزقة -كما يظن من لا يعرفون- كلا.. فقد قال رسول الإسلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوى»[١] -المرة: القوة والشدة- والسوى: السليم الأعضاء.

وجاء رجلان إلى النبي ﷺ في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة، فسألاه منها، فرفع فيهما البصر وخفضه، فرآهما جلدين -قويين- فقال: «إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب»[٢].

وإنما خيرهما الرسول، لأنهما قد يكونان قويين في ظاهر أمرهما، ولكنهما غير مكتسبين أو يكتسبان ما لا يكفيهما.

فالواجب على كل مسلم أن يعمل، والواجب على الدولة أن تهيئ له ما يناسبه من عمل، فإن عجز عن عمل يقوم بكفايته، فلن يهلك في مجتمع مسلم. بل تقوم الزكاة له بإيفائه حاجاته المعقولة.

● **والصنف الثالث** من مستحقي الزكاة هم: العاملون عليها. سواء أكانوا عاملين على جمعها من مالكي النصاب. وهم الجباة، أم عاملين على حفظها وهم الخزنة، أو عاملين على حراستها أو كتابتها في دواوين وما إلى ذلك، أو عاملين على توزيعها على مستحقيها، وصرفها في مصارفها الشرعية.

● **والصنف الرابع** هم «المؤلفة قلوبهم» وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام، ليسلموا، أو لتثبت أقدامهم فيه، أو رجاء نفعهم في الدفاع عن المسلمين، أو كفًّا لشرهم عنهم. وقد أعطى النبي ﷺ بعض من كانوا يرجو إيمانه من

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وصححه. (٢) رواه أبو داوود والنسائي.

obeikandi.com

الكفار كصفوان بن أمية أحد أشراف الجاهلية وأجَوادها وفصائحها. وقد أسلم وحسن إسلامه، كما أعطى بعض زعماء القبائل كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، وقد رجا بإعطائهم تثبيتهم وتقوية إيمانه، والانتفاع بهم في حرب المشركين.

ووجود هذا الصنف يرجع إلى إمام المسلمين وأهل شوراه، فإن رأى أن يتألف قومًا لمعنى من المعاني التي ذكرناها كان له أن يعطيهم سهمًا من مال الزكاة. وإن لم يجد ضرورة لذلك -كما فعل عمر- فليس بمفروض عليه أن يخلق هذا الصنف، فيسقط سهمهم لعدم وجودهم، كما إذا لم يوجد الفقراء أو الغارمون، أو الرقاب.

وبهذا نتبين خطأ من يزعمون أن عمر عطَّل نصًّا من كتاب الله -وحاشًا له- وإنما عطل التأليف -وهذا من حقه- لقوم طامعين قد أغنى الله عنهم.

ويمكن أن يُنفق السهم في عصرنا للتبشير بالإسلام كما يصنع مخالفو المسلمين، ويمكن أن يعطى منه «قوم من المسلمين يألفهم الكفار ليدخلوهم تحت حمايتهم أو في دينهم، فإنا نجد دول الاستعمار الطامعة في استعباد جميع المسلمين وفي ردهم عن دينهم يخصصون من أموال دولهم سهمًا للمؤلفة قلوبهم من المسلمين، فمنهم من يؤلفونه لأجل تنصيره وإخراجه من الإسلام، ومنهم من يؤلفونه لأجل الدخول في حمايتهم، أو مشاقة الدول الإسلامية، أو الوحدة الإسلامية. . . أفليس المسلمون أولى بهذا منهم» ؟!! .

● **والمصرف الخامس**: «في الرقاب» أي في تحرير رقاب الأرقاء وتخليصهم من الرق. وقد جاء الإسلام والرق ضارب أطنابه في العالم كله، فلم يكن من السهل أن يلغيه بجرة قلم. بل وضع من التعاليم والتوجيهات ما يلغيه من الحياة بهدوء وتدرج حكيم. وكان من الوسائل التي اتخذها الإسلام لإلغائه أو تضييق نطاقه جعله تحرير الرقبة من أفضل القربات إلى الله، وجعله كذلك كفارة لكثير من الأخطاء التي يتورط فيها المسلم كالحنث في اليمين، ثم أمر المسلمين أمرًا عامًّا أن يكاتبوا أرقاءهم على مبالغ من المال يؤدونها على أقساط -ما داموا قد علموا فيهم الخير- كما أمر المسلمين جميعًا أن يعاونوا هؤلاء المكاتبين على أداء ما التزموا به وفي هذا يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ

مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور : ٣٣].

ولم يدع الإسلام هذا الأمر الهام -أمر تحرير الرقيق- للأفراد وحدهم، بل ألقى على عاتق الدولة نصيبًا منه. وذلك حين جعل من أموال الزكاة سهمًا ينفق منه على تحرير الرقيق بإعانة المكاتبين على وفاء أقساطهم، أو بشراء بعض الرقاب لعتقها: وهذا أول تشريع عملي تعرفه الإنسانية لتحرير أولئك المستعبدين. وليس بالهين أن يرصد الإسلام لهذا الغرض ثمن مال الزكاة -أو أكثر- وهو مقدار قد يبلغ الملايين في كل عام، وقد ترصد الزكـــاة كلها لهذا الغرض في بعض الأحيان، كما حدث في عهد الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز في صدقات أفريقية.

● **والصنف السادس**: «الغارمون» وهم الذين ركبتهم ديون مرهقة تعذر عليهم أداؤها، على أن تكون هذه الديون في غير معصية الله، وفي غير سفاهة وإسراف، فإن العاصي لا يُعان بمال الله على معصية الله، والسفيه لا يعان أيضًا على سفهه، إلا إذا تابا إلى الله واستقاما وعرفت توبتهما واستقامتهما. والإســلام يكره للمسلم أن يستدين، فإذا استدان -بسبب مشروع- عاونه على التخلص من ربقة الدين، فالدين هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار، والإسلام لا يحب للمسلم همًّا ولا ذلًا. إنه يقيله من عثرته، وينتشله من وهدته، ولا يتركه يسقط فريسة الديون ويعلن إفلاسه.

وهكذا يأخذ الإسلام بيد الغارم المجهود، ولا يكلفه بيع حوائجه الأصلية ليسدد ما عليه، ويعيش فارغًا من المقومات الأساسية للحياة، محرومًا من كل أثاث ومتاع يليق بمثله. كلا. . فقد كتب عمر بن عبد العزيز في خلافته إلى ولاته: أن اقضوا عن الغارمين. فكتب إليه من يقول: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث -أي وهو مع ذلك غارم فكتب عمر: إنه لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه. ومن أن يكون له الأثاث في بيته. . نعم فاقضوا عنه فإنه غارم»!

ومن الغارمين فئة من أصحاب القلوب الكبيرة عرفها المجتمع العربي والإسلامي، كان الواحد من هؤلاء يتقدم لإصلاح ما بين أسرتين أو قبيلتين، ويلتزم دفع ما يقتضيه الصلح من

ديات وغرامات ، لتخمد نار الفتنة ، وتسود السكينة والسلام. فكان من فضل الإسلام أن يُعان هؤلاء من الزكاة على ذلك الهدف النبيل.

ويروي لنا الإمامان أحمد ومسلم عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ، ثم قال : «يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة ، حتى يصيبها ثم يمسك -أي يكف عن السؤال- ورجل أصابته جائحة -أي كارثة- اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش- أو قال : سدادًا من عيش- ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش -أو قال سدادًا من عيش- فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتًا».

وأنها لروعة من الإسلام أن يمد بالمال كل غارم لإصلاح ذات البين وإقرار السلام والوئام ، وروعة منه أن يمد بالمال والمعونة أصحاب الكوارث والجوائح ويأخذ بيدهم لينهضوا ، قبل أن تعرف الدنيا بقرون نظام التأمين على الأشياء والممتلكات ضد الحوادث والأخطار.

وروعة منه أن يفتح ذراعيه ، بالمعونة للفقير الذي يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أنه قد أصابته فاقة ، لا لكل من يظهر الفاقة ويدعي المسكنة.

وروعة ثم روعة أن يجعل الغاية من إعطاء هذا وذاك أن يصيب قوامًا من عيش أو سدادًا من عيش - أي ما يقوم بمعيشته ويسد خلته لا مجرد لقيمات يقيم بها صلبه.

● **والمصرف السابع** : «في سبيل الله» وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ، وأول ما يتبادر إلى الذهن منه هو الجهاد والقتال لكثرة اقترانه في القرآن والسنة بكلمة «في سبيل الله» ويدخل فيه إعداد العدة وتجهيز المجاهدين ، وإعطاؤهم منها وإن كانوا أغنياء ، ما لم يكن لهم راتب من الدولة. والمراد بالجهاد هنا : الجهاد الإسلامي ، الذي حدده النبي ﷺ بقوله : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [1].

(١) متفق عليه.

ويرى بعض العلماء أن هذا المصرف يشمل كل مصلحة عامة يتحقق بها للمسلمين خير عام لملتهم أو جماعتهم. كعمارة المساجد، وبناء المدارس الإسلامية ونحو ذلك.

وأرى أن يقتصر هذا المصرف على الجهاد الإسلامي وما في معناه من كل عمل يُقصد به رفع راية الإسلام ونصرة دعوته، وتحكيم شريعته في الأرض وإعلاء نظامه على كل نظام[1].

● **والصنف الثامن**: «ابن السبيل» وهو والمنقطع عن ماله وإن كان من أهل الغنى واليسار في بلده، فقد قدَّر الإسلام حاجته، وأكرم غربته، بفرضه له هذا السهم من الزكاة. ويدخل في ذلك اللاجئون المضطهدون من المسلمين الذين فروا من ظلم الحكام الكفرة أو أشباه الكفرة.

هذه هي المصارف الثمانية التي حددها القرآن للزكاة[2]. وهي مصارف إسلامية محضة، فلا تصرف الزكاة إلا للمسلمين المستحقين وفي المصالح العامة لملة الإسلام، وجماعة المسلمين.

كما أنها لا تؤخذ إلا من المسلمين، إذ هي عبادة وشعيرة، قبل أن تكون ضريبة. ومن أجل ذلك لم يفرضها الإسلام على غير المسلمين ممن يعيشون في كنفه ويستظلون بحكمه، فإن العبادات والشعائر لا يُكلف بها إلا المسلمون.

وبذلك نعلم أن أموال الزكاة لا تُضاف إلى «الميزانية العامة» للدولة فتذوب في غمارها، وتتسرب في مسارب نفقاتها المتشعبة الكثيرة، بل تبقى لها ميزانيتها الخاصة لتنفق في مصارفها الخاصة. كما أوضحها القرآن.

● الزكاة حق لا تفضُّل

ومن هذا كله نعلم أن الزكاة ليست تفضلًا وإحسانًا من إنسان إلى آخر وإنما هي «حق معلوم» كما قال الله تعالى.

---

(١) راجع ما كتبناه عن هذا المصرف في كتابنا «فقه الزكاة» جـ ٢ ص ٦٣٥ - ٦٦٩ .

(٢) فصلنا القول في أحكام هذه المصارف وأسرارها في الباب الرابع من كتابنا «فقه الزكاة» فمن أراد التوسع فليرجع إليه .

● حق الفقير

هي حق الفقير بوصفه أخًا للغني في الدين والإنسانية، فقد جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضًا، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله. فمن حق الفقير الذي لا يستطيع أن يعمل، أو يستطيع ولا يجد عملًا، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله، أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة. . من حقه أن يُعان ويشد أزره ويؤخذ بيده. وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التخمة، وإلى جواره من طال حرمانه حتى أنّ من الجوع.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش في دائرة نفسه مغفلًا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين، فهذا نقص في إيمانه، موجب لسخط الله في الدنيا والآخرة. وفي هذا يقص علينا القرآن مشهدًا من مشاهد الآخرة بين أهل اليمين في الجنة وأهل الشمال في النار، فأصحاب اليمين ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٠ - ٤٤] فهنا كان ترك إطعام المسكين من موجبات الخلود في سقر. وأروع من ذلك وأعجب أن القرآن لا يكتفي بإيجاب إطعام المسكين -ومثل إطعامه كسوته ورعاية ضروراته وحاجاته- بل يزيد على ذلك فيجعل في عنق كل مؤمن حقًّا للمسكين أن يخص غيره على إطعامه ورعايته، ويجعل ترك هذا الحض من لوازم الكفر بالله، والتكذيب بيوم الدين. نقرأ في هذا قول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١ - ٧] فقهر اليتيم وإهمال الحث على رعاية المسكين جُعلا دليلًا على أن القلب خلو من الإيمان بالآخرة والتصديق بالجزاء، وما كان لمثل هذا الشخص من صلاة فهي صلاة الساهين المرائين.

ويقول تعالى في شأن أصحاب الشمال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩] ثم يصدر الله عليه الحكم الذي يستحقه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٠ - ٣٢] ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد : ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحاقة : ٣٣، ٣٤].

ولم تر الدنيا كتابًا كالقرآن يجعل إهمال الحث على العناية بالمسكين من موجبات الجحيم. والعذاب الأليم.

● حق الجماعة

والزكاة -مع أنها حق الفقير- حق الجماعة أيضًا ، فالإنسان لم يكسب المال بجهده وحده ، بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيد كثيرة ، بعضها عن قصد ، وبعضها عن غير قصد ، بعضها ساهم من قريب ، وبعضها ساهم من بعيد ، وكلها أسباب عاونت في وصول المال إلى ذي المال. فإذا نظرنا إلى التاجر مثلًا كيف جمع ماله وحقق كسبه؟ رأينا للمجتمع عليه فضلًا كبيرًا. فممن يشترى؟ ولمن يبيع؟ ومع من يعمل؟ وبمن يسير إذا لم يكن المجتمع؟ وهكذا الزارع والصانع وكل ذي مال. فمن حق المجتمع ممثلًا في الدولة التي تشرف عليه وترعى مصالحه ، وتسد خلات أفراده أن يكون لها نصيب من مال ذي المال. فلو لم يكن في المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدي زكاته ولابد؛ لتكون رصيدًا للجماعة ، تنفق منه عند المقتضيات ، ولتبذل منه «في سبيل الله» وهو مصرف عام دائم ما دام في الأرض إسلام.

● حق الله

والزكاة بعد ذلك -وقبل ذلك- حق الله تعالى؛ فالله هو المالك الحقيقي لكل ما في الكون أرضه وسمائه ،والمال في الحقيقة ماله ، لأنه خالقه وواهبه وميسر سبله ، ومانح الإنسان القدرة على اكتسابه.

إذا زرع الإنسان زرعًا فأنبت حبًا ، أو غرس غرسًا فآتى ثمرًا فكم يوازي عمل يده في الحرث والسقي والتعهد بجانب عمل يد الله الذي جعل الأرض ذلولًا ، وأنزل الماء من السماء مطرًا؟ . وأجراه في الأرض نهرًا ، وهيأ للحبة في باطن التراب غذاءها حتى صارت

شجرة مورقة مثمرة؟ ألا ما أقل عمل الإنسان وجهده بجانب رعاية الله! .

ثم ما عمل الإنسان إذا لم يهبه الله الأدوات التي بها يعمل ، والعقل الذي يفكر ويدبر؟

ولهذا يبين القرآن فضل الله على عباده ، ويرد الحق إلى نصابه ، فيقول : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؟ ! [الواقعة : ٦٣ - ٧٠].

ويقول في سورة أخرى : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾ [عبس : ٢٤ - ٢٨].

وفي سورة ثالثة يقول : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس : ٣٣ - ٣٥].

نعم. . «أفلا يشكرون» وهم يأكلون من ثمار لم تعملها أيديهم وإنما عملتها يد الله ، الله الذي أحيا الأرض الميتة وأخرج منها الحب ، وأنشأ الجنات وفجّر العيون.

وليس عمل يد الله في الزراعة فحسب ، بل في كل ناحية من الحياة : زراعة أو تجارة أو صناعة أو غيرها. ففي الصناعة مثلاً نجد المادة الخام من خلق الله لا من إنتاج الإنسان ، ومن هنا امتن الله على الناس بمادة الحديد فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد : ٢٥] والتعبير بـ «أنزلنا» يعني أن الله خلقه بتدبير سماوي علوي لا دخل للإنسان فيه.

ونجد الاهتداء إلى الصناعات من إلهام الله وتعليمه للإنسان ما لم يكن يعلم كما قال تعالى عن نبي الله داوود ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟ [الأنبياء : ٨٠].

والنتيجة من هذا أن المال رزق يسوقه الله للإنسان فضلاً منه ونعمة ، ومهما ذكر الإنسان عمله وجهده فليذكر عمل القدرة الإلهية في الإيجاد والإمداد. فلا غرابة بعد هذا

أن ينفق الإنسان -عبد الله- بعض ما رزقه الله، على إخوانه عباد الله، قيامًا للواجب المنعم بحق الشكر على نعمائه. ومن أجل هذا يقول الله في كتابه ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ويقرر أن المال مال الله والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه أو موظف مؤتمن على تنميته وإنفاقه والانتفاع والنفع به، يقول تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وهذا المعنى في الزكاة -أنها حق الله- هو الذي يميزها عن الضريبة في النظم المادية الأخرى. إنها ضريبة وعبادة معًا. . ضريبة: لأنها حق محدد مقرر لا تهاون فيه، تتولى الدولة المسلمة جبايته وتوزيعه. وعبادة: لأن المسلم يؤديها طاعة لأمر الله، وشكرًا له، واعترافًا بفضله. ولهذا لا يكتفي الإسلام بالأداء الآلي لهذه الضريبة ما لم تصحبه نية القربة إلى الله، بل لا يرضي من المسلم أن يؤديها كارهًا متبرمًا كأنما يدفع مغرمًا. ولهذا أيضًا أوصى النبي ﷺ دافع الزكاة أن يقول عند أدائها: «اللهم اجعلها مغنمًا ولا تجعلها مغرمًا»(١).

وقال: «ثلاث من فعلهُن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه. . .»(٢).

وجعل من أسباب البلاء للأمة: «أن تصير الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا»(٣).

● أهداف الزكاة

لكلمة الزكاة في لغة العرب معنيان: معنى الطهارة والنظافة ومعنى النماء والزيادة.

وإنما اختار الإسلام هذه الكلمة ليعبر بها عن الفريضة المالية المعلومة، لأن هذه اللفظة تكشف عما يقصد إليه الإسلام من وراء هذه الفريضة.

فالزكاة فيها معنى الطهارة ومعنى النماء كلاهما.

---

(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه أبو داوود.
(٣) رواه الترمذي من حديث علي، وأوله: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء. .» الحديث، وهو ضعيف.

هي طهارة لنفس الغني من الشح البغيض. تلك الآفة النفسية الخطرة التي قد تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه، أو العرض فيبذله، أو الوطن فيبيعه، ولن يفلح فرد أو مجتمع سيطر الشح عليه وملك ناصيته ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، والتغابن: ١٦].

وهي في الجانب الآخر طهارة لنفس الفقير من الحسد والضغن على ذلك الغني الكانز لمال الله عن عباد الله ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: ٢، ٣]. ومن شأن الإحسان أن يستميل قلب الإنسان، كما أن من شأن الحرمان في جانب، والتنعم في جانب، أن يملأ قلوب المحرومين بالبغضاء والأضغان.

وهي طهارة للمجتمع كله -أغنيائه وفقرائه- من عوامل الهدم والتفرقة والصراع والفتن والهوج.

ولعل هذا كله ما تهدي إليه الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ثم هي طهارة للمال، فإن تعلق حق الغير بالمال يجعله ملوثًا لا يطهر إلا بإخراجه منه. وفي مثل هذا المعنى يقول بعض السلف: «الحجر المغصوب في الدار رهن بخرابها» وكذلك الدرهم الذي استحقه الفقير في المال رهن بتلويثه كله. ولهذا روى عن النبي ﷺ: «إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره»[1].

وأكثر من ذلك ما روى أنه قال: «حصنوا أموالكم بالزكاة»[2].

وما أحوج الأغنياء إلى هذا التحصين، وخاصة في عصرنا الذي عرف المبادئ الهدامة، والثورات الحمراء! !

ثم هي -بعد معنى الطهارة- نماء وزيادة. نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي، فالإنسان الذي يسدي الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله عليه، يشعر بامتداد في نفسه، وانشراح

(١) رواه الحاكم.
(٢) رواه أبو داوود في المراسيل.

واتساع في صدره، ويحس بما يحس به من انتصر في معركة، وهو فعلًا قد انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شحه وهواه. فهذا هو النمو النفسي، والزكاة المعنوية.

ولعل هذا ما نفهمه من عبارة الآية ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ فعطف التزكية على التطهير قد يفيد هذا المعنى الذي ذكرناه، إذ كل كلمة في القرآن لها معناها ودلالتها.

والزكاة أيضًا نماء لشخصية الفقير، حيث يحس أنه ليس ضائعًا في المجتمع، ولا متروكًا لضعفه وفقره، ينخران فيه حتى يوديا به، ويعجلا بهلاكه. كلا. إن مجتمعه ليعمل على إقالة عثرته، ويحمل عنه أثقاله. ويمد له يد المعونة بكل ما يستطيع. وبعد ذلك هو لا يتناول الزكاة من فرد يشعر بالاستعلاء عليه، ويشعر هو بالهوان أمامه، بل يأخذ حقه من يد الدولة حرصًا على كرامته أن تخدش. ولو قدر للأفراد أن يكونوا هم المعطين بأنفسهم، فالقرآن يحذرهم المن والأذى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

والزكاة بعد ذلك نماء للمال وبركة فيه، وربما استغرب ذلك بعض الناس فالزكاة في الظاهر نقص من المال بإخراج بعضه، فكيف تكون نماء وزيادة؟!

ولكن العارفين يعلمون أن هذا النقص الظاهري وراءه زيادة حقيقية: زيادة في مال المجموع، وزيادة في مال الغني نفسه، فإن هذا الجزء القليل الذي يدفعه يعود عليه أضعافه من حيث يدري أو لا يدري.

وقريب من هذا ما نراه في بعض الدول الغنية المتخمة تتبرع بأموال من عندها لبعض الدول الفقيرة، لا لله، ولكن لتخلق قوة شرائية لمنتجاتها.

وإذا نظرنا نظرة نفسية نرى أن الدينار في يد رجل تخفق له القلوب بالحب، وتهتف له الألسنة بالدعاء، وتحوطه الأيدى بالحماية والرعاية- الدينار مع هذا الإنسان أشد قدرة وأكثر حركة من بضعة دنانير مع غيره، ممن يعيش لنفسه، غريقًا في أنانيته، يتمنى الناس له الفشل والإخفاق.

ولعل هذا التفسير الاقتصادي للنماء هو بعض ما تشير إليه آيات القرآن ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن

شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨] ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

ولا تنس هنا عمل العناية الإلهية في هذا الإخلاف والإرباء، بغير ما نعرف من الأسباب، والله يؤتي من فضله ما يشاء لمن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والزكاة بعد ذلك وسيلة من وسائل الضمان الاجتماعي الذي جاء به الإسلام، فإن الإسلام يأبى أن يوجد في مجتمعه من لا يجد القوت الذي يكفيه، والثوب الذي يزينه ويواريه، والمسكن الذي يؤويه، فهذه ضروريات يجب أن تتوافر لكل من يعيش في ظل الإسلام. والمسلم مطالب بأن يحقق هذه الضرورات وما فوقها من جهده وكسبه، فإن لم يستطع فالمجتمع يكفله ويضمنه، ولا يدعه فريسة الجوع والعرى والمسكنة.

فهكذا علَّم الإسلام المسلمين أن يكونوا كالجسد الواحد، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

والزكاة مورد أساسي لهذه الكفالة الاجتماعية المعيشية التي فرضها الإسلام للعاجزين والمحرومين.

ثم هي وسيلة من وسائل الإسلام التي اتخذها لتقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء. فالإسلام -باعتباره دينًا، يعترف بالفطرة ويهذبها ويسمو بها ولا يعلن الحرب لاستئصالها أو مقاومتها- قد أقرَّ الملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع؛ استجابة للدوافع الفطرية الأصيلة في الإنسان التي تتطلب التملك والمنافسة والادخار.

وبالتالي يكون الإسلام قد اعترف بالتفاوت الفطري في الأرزاق بين الناس، إذ هو بلا شك ناشيء عن تفاوت فطري آخر في المواهب والملكات، والقدر والطاقات. ولكن هذا الاعتراف بالتفاوت الفطري في الرزق، ليس معناه أن يدع الغني يزداد غنى، والفقير يزداد فقرًا، فتتسع الشقة بين الفريقين، ويصبح الأغنياء «طبقة» كتب لها أن تعيش في أبراج

من العاج ، ويصبح الفقراء «طبقة» كتب عليها أن تموت في أكواخ من البؤس والحرمان ، بل تدخَّل الإسلام بتشريعاته القانونية ، ووصاياه الروحية والخلقية ، لتقريب المسافة بين هؤلاء وأولئك ، فعمل على الحد من طغيان الأغنياء ، والرفع من مستوى الفقراء.

ولسنا هنا في مقام الحديث عن وسائل الإسلام في هذا التقريب من تحريم للربا والاحتكار والسرف والترف. . . إلخ ، وإنما أتحدث عن الزكاة ، فهي وسيلة بارزة من هذه الوسائل : هي أخذ من الأغنياء ، وإعطاء للفقراء.

وهي أمضى سلاح في محاربة الكنز وإخراج النقود من مخابئها في الصناديق أو الشقوق ، لتشارك في ميدان العمل والتثمير ، بدل أن تبقى قوة معطلة شلاء. ولقد شُبِّه من يحبس المال ويكنزه عن التداول بمن حبس جنديًّا في جيش الإسلام عن مزاولة عمله في ميدان الجهاد. وهذا حق ، فالدينار المتداول المستثمر جندي يعمل لخدمة الأمة ورخائها وسيادتها ، والدينار المخزون المكنوز جندي قاعد أو محبوس.

ولهذا حرَّم الإسلام الكنز ، وأعلن القرآن سخط الله على الكانزين الأشحاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة : ٣٤، ٣٥].

ولم يكتف الإسلام بهذا الوعيد للكانزين ، لقد زاد على ذلك بوضع خطة عملية لمقاومة الكنز ، تلك هي الزكاة. فأي إنسان يرضى أن ينتقص كل عام من دراهمه ودنانيره ٢,٥ بالمئة وهي بحالها لا تنمو؟ إن الزكاة لتوشك أن تلتهمها بعد سنوات قلائل ما لم يتدارك ماله فيثمره وينميه. . وهذا ما جعل الرسول الكريم يأمر الأوصياء على أموال اليتامى أن يتجروا فيها حتى لا تأكلها الزكاة [1].

---

(١) معنى حديث رواه الترمذي.

● من شهادات الكتّاب الأجانب

تلك هي الزكاة في الإسلام، وذلك بعض أهدافها وأسرارها. فلا غرو إن رأينا كثيرًا من الكتاب والباحثين الغربيين ينوهون بها، ويشيدون بفضل الإسلام في شرعيتها.

يقول «ليودوروش»: لقد وجدت في الإسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم.

الأولى: قول القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية.

والثانية: «فرض الزكاة على كل ذي مال»[1].

وينقل لنا صاحب «الإسلام والنظام العالمي الجديد» عن «ماركس» -غير كارل ماركس اليهودي الشيوعي- قوله عن الزكاة: «وكانت هذه الضريبة فرضًا دينيًّا يتحتم على الجميع أداؤه، وفضلًا عن هذه الصفة الدينية، فالزكاة نظام اجتماعي عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم. وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية، ولا عرضية طارئة.

«وهذا النظام البديع كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة، فضريبة الزكاة التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء على دفعها، لتصرفها الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها هدمت السياج الذي كان يفصل بين جماعات الدولة الواحدة، ووحدت الأمة في دائرة اجتماعية عادلة. وبذلك برهن هذا النظام الإسلامي على أنه لا يقوم على أساس الأثرة البغيضة».

وينقل عن «ماسينيون» المستشرق الشهير:

«إن لدين الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال، وهو يناهض الديون الربوية، والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الأولية الضرورية. ويقف في نفس الوقت إلى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجاري، وبذلك يحل الإسلام مرة أخرى مكانًا وسطًا بين

(١) من كتاب «الإسلام والحضارة العربية» لكرد علي.

نظريات الرأسمالية البرجوازية، ونظريات البلشفية الشيوعية».

● التزام أداء الزكاة كاف لإعادة مجد الإسلام

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله في تفسيره:

«إن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه -كما يعترف بهذا حكماء جميع الأمم وعقلاؤها- ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم -بعد أن كثرهم الله ووسع عليهم في الرزق- فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع. ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة، فجنوا على دينهم وأمتهم، فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالًا في مصالحهم المالية والسياسية، حتى فقدوا ملكهم وعزهم وشرفهم، وصاروا عالة على أهل الملل الأخرى. حتى في تربية أبنائهم وبناتهم؛ فهم يلقونهم في مدارس دعاة النصرانية، أو دعاة الإلحاد، فيفسدون عليهم دينهم ودنياهم، ويقطعون روابطهم الملية والجنسية، ويعدونهم ليكونوا عبيدًا أذلة للأجانب عنهم. وإذا قيل لهم: لماذا لا تؤسسون لأنفسكم مدارس كمدارس هؤلاء الرهبان والمبشرين أو الملاحدة الإباحيين؟ قالوا: إننا لا نجد من المال ما يقوم بذلك. وإنما الحق أنهم لا يجدون من الدين والعقل وعلو الهمة والغيرة ما يمكنهم من ذلك، فهم يرون أبناء الملل الأخرى يبذلون للمدارس وللجمعيات الخيرية والسياسية ما لا يوجبه عليهم دينهم، وإنما أوجبته عليهم عقولهم وغيرتهم الملية والقومية، ولا يغارون منهم. وإنما يرضون أن يكونوا عالة عليهم. تركوا دينهم فضاعت بإضاعتهم له دنياهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

«فالواجب على دعاة الإصلاح فيهم أن يبدأوا بإصلاح من بقي فيه بقية من الدين والشرف بتأليف جمعية لتنظيم جمع الزكاة منهم، وصرفها قبل كل شيء في مصالح المرتبطين بهذه الجمعية دون غيرهم. ويجب أن يراعى في تنظيم هذه الجمعية أن لسهم «المؤلفة قلوبهم» مصرفًا في مقاومة الردة والإلحاد. وأن لسهم «في الرقاب» مصرفًا في تحرير الشعوب المستعمرة من الاستعباد، إذا لم يكن له مصرف تحرير الأفراد، وأن لسهم «سبيل الله» مصرفًا في السعي لإعادة حكم الإسلام، وهو أهم من الجهاد لحفظه في حال وجوده من عدوان الكفار، ومصرفًا آخر في الدعوة إليه والدفاع عنه بالألسنة والأقلام، إذا

تعذر الدفاع عنه بالسيوف والأسنة.

«ألا إن إيتاء جميع المسلمين أو أكثرهم للزكاة وصرفها بانتظام كاف لإعادة مجد الإسلام، بل لإعادة ما سلبه الأجانب من دار الإسلام، وإنقاذ المسلمين من رق الكفار. وما هي إلا بذل العشر أو ربع العشر مما فضل عن حاجة الأغنياء. وإننا نرى الشعوب التي سادت المسلمين- بعد أن كانوا سادتهم- يبذلون أكثر من ذلك في سبيل أمتهم وملتهم، وهو غير مفروض عليهم من ربهم» !![1].

● زكاة الفطر

وهناك نوع فريد من الزكاة شرعه الإسلام لا يتبع رأس المال كزكاة النقدين، ولا الدخل والغلة كزكاة الزروع والثمار، ولا يشترط فيه اليسار وملك النصاب كبقية أنواع الزكاة. . إنها «زكاة الفطر» وسميت بهذا، لأنها تجب بالفطر من رمضان كل عام، فهي دورية سنوية. وهي معونة أو منحة عاجلة من غالب قوت أهل البلد، شرعت بمناسبة الانتهاء من الصيام والدخول في العيد شكرًا لله على نعمة التوفيق في الصيام، ونعمة الفرحة بالعيد، ومواساة من المسلم لإخوانه المحتاجين وإغناءً لهم عن السؤال في يوم العيد، ولأنها مشروعة بهذه المناسبة حدَّد الإسلام وقت أدائها بما قبل صلاة العيد. وفي هذا قال ابن عباس «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث -الكلام الفاحش- وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»[2].

وكان ابن عمر يؤديها قبل العيد بيوم أو يومين. . وقال الشافعي: يجوز تقديمها من أول الشهر.

فرض الإسلام هذه الزكاة على كل مسلم يملك مقدارها -وهو صاع من قمح أو شعير أو تمر أو نحوه[3]- زائدًا عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته، وتجب على المسلم عن

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ٥٩٧، ٥٩٨ ط. ثانية.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني.

(٣) يرى أبو حنيفة وبعض الأئمة أن الواجب نصف صاع من القمح فقط، وهو يوازي سدس كيلة مصرية وجوز إخراج القيمة نقدًا. وإنما كان الواجب طعامًا، لقلة النقود عندهم، ولعدم ثبات القدرة الشرائية للنقود.

نفسه وعمن تلزمه نفقته من كل من يلي أمورهم وينفق عليهم كزوجته وأبنائه وخدمه. روى الشيخان عن ابن عمر قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمر أو صاعًا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين».

وإنها لحكمة بالغة من الإسلام ألا يوجب هذه الزكاة على الموسر المالك للنصاب وحده، بل يوجبها على كل مسلم تقريبًا، فقلما يوجد في المجتمع المسلم من لا يملك مقدار قدح وثلث من الحبوب فاضلًا عن قوت يومه وليلته. وأن هذه الحكمة لتتجلى في تعويد المسلم البذل وتدريبه على الإنفاق ولو كان فقيرًا معسرًا، وإشعاره بكرامته وشخصيته حين يمد يده معطيًا لا آخذًا. ولهذا كان من صفات المتقين الذين أعد الله لهم جنة عرضها السموات والأرض أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وإذا تبينا هذه الحكمة الجليلة لم نجد غرابة في أن يعطي هذه الزكاة من هو مستحق للزكاة، وهو لن يخسر، لأنه يعطي من ناحية، ويُعطَى من نواح.

وفي هذا يقول النبي الكريم: «صاع من بر أو قمح على كل امرئ: صغير أو كبير، حر أو عبد، ذكر أو أنثى، غني أو فقير. أما غنيكم فيزكيه الله، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى»(١).

● في المال حق سوى الزكاة

والزكاة ليست هي الحق الوحيد في مال المسلم. وإنما هي الحق الدوري المحدد المرسوم، وفي المال حقوق أخرى تقتضيها الظروف. وتوجبها الحاجات وتوكل في الغالب إلى ضمير المسلم ومشاعره الزكية التي رباها الإسلام، فليس لها قدر محدد ولا زمن معين.

عن أنس بن مالك أن رجلًا من بني تميم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. . ، إني ذو مال كثير، وذو أهل ومال وحاضرة، فأخبرني كيف أصنع، وكيف أنفق؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف

(١) رواه أحمد وأبو داوود.

حق المسكين والجار والسائل»[1] فجعل صلة الأقرباء من المال ومعرفة حق المسكين والجار والسائل من الحقوق عليه بعد الزكاة.

وقال تعالى في بيان حقيقة البر وعناصره: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فجعل من عناصر البر إيتاء المال ذوي القربى ومن بعدهم، مع الزكاة المقرونة بالصلاة.

● الإنفاق المستحب

وكل ما ذكرناه إنما هو في الإنفاق الواجب، ولكن دائرة الإنفاق تتسع بعد ذلك لما تهفو إليه القلوب المؤمنة من التطوع بالخير، والتوسع في إسداء المعروف. وقد رغب الإسلام في ذلك ترغيبًا يشرح صدر الكريم، ويدفع البخيل إلى العطاء، فالله تعالى يتقبل الصدقة بيمينه، ويربيها لصاحبها كما يربي أحدنا مهره حتى تصير التمرة مثل جبل أُحد. هذا ما صوَّره لنا رسول الله ﷺ. ويصور القرآن ذلك فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن الترغيبات القرآنية:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

ومن الأحاديث: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[2].

وروى عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فتصدقوا ببعضها، فقال النبي ﷺ: «ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها غير كتفها»!![3] وقال ﷺ «يقول العبد

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. (٢) رواه مسلم. (٣) رواه الترمذي وقال. حسن صحيح.

مالي مالي. وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى -أي ادخره عنده الله- وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[1].

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله»؟

قالوا: يا رسول الله. . ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر»[2].

من أجل هذه النصوص وغيرها جادت نفوس المسلمين الأولين بما يحبون من المال وفاضت أيديهم بالخير فيضًا، ولم يشبع نهمهم للقربات أداء الزكاة وما فوق الزكاة من الحقوق المالية، بل زادوا عليها متطوعين يبتغون ما عند الله. وما عنده خير وأبقى.

وبحسبنا أن نذكر هنا الإمام الليث بن سعد الذي كان يتصدق بكل ما يجمعه من مال ولا يدعه حتى يحول عليه حول معه. وقالوا: إن دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار.

وكذلك كان عبد الله بن جعفر الذي لم يكن يرد سائلًا يؤمه في حاجه قط. ولما قيل له في ذلك، قال: إن الله عودني عادة وعودت عباده عادة: عودني أن يعطيني، وعودت عباده أن أعطيهم، وأخشى إذا قطعت عادتي عنهم أن يقطع عادته عني.

* * *

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري والنسائي.

الصيام

● تنوع العبادات في الإسلام

نوَّع الإسلام في عباداته : فمنها ما يتمثل في القول ، كالدعاء ، وذكر الله ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وما يدور في هذا الفلك.

ومنها ما يتجلّى في الفعل : بدنيًا كالصلاة ، أو ماليًا كالزكاة ، أو جامعًا بينهما كالحج والجهاد في سبيل الله.

ومنها ما ليس قولًا ولا فعلًا ، ولكنه كف وامتناع فقط. وذلك كالصوم ، الذي هو امتناع عن الأكل والشرب ومباشرة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

● الصوم عمل إيجابي في حقيقته وروحه

وهذا الامتناع والترك إن بدا سلبيًا في مظهره ، فهو عمل إيجابي في حقيقته وروحه ، إذ هو كف النفس عما تشتهيه بنية القربة إلى الله تعالى. فهو بهذا عمل نفسي إرادي له ثقله في ميزان الحق والخير والقبول عند الله.

النية إذن هي الفيصل في كل فعل وترك. وهل الدين إلا فعل وترك؟ فعل للمأمور به إيجابًا أو استحبابًا. وترك للمنهى عنه تحريمًا أو كراهة. بل هل الفضائل إلا فعل لما ينبغي. وترك لما لا ينبغي؟

والصيام عبادة قديمة عرفتها الأديان قبل الإسلام. وإن حرَّف الناس في كيفيته وبدَّلوا. قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣].

ولكن صيام الإسلام يمتاز عن كل صيام سواه.

● شهر الصيام المفروض

وقد اختار الله لهذا الصيام في الإسلام شهرًا مباركًا كريمًا. له في نفوس المسلمين مكان كريم، فهو الشهر الذي نزل فيه أول فوج من آيات القرآن العزيز، حملها الروح الأمين إلى قلب الرسول الكريم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وجدير بشهر اصطفاه الله لينزل فيه أفضل كتبه إلى خيرة خلقه، أن يكون أهلًا ليفرض فيه تلك العبادة السنوية «الصيام». قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

● من أسرار الصيام

لقد فرض الله علينا الصيام في رمضان، وما فرضه إلا لأسرار عليا. وحكم بالغة، نعرف منها ما نعرف ونجهل منها ما نجهل، ويكشف الزمن عن بعضها ما يكشف، فعلينا أن نتأمل حكمة الله من وراء هذا الجوع والعطش، وأن ندرك سره تعالى في الصوم حتى نؤديه كما أراده الله لا كما اشتهاه الناس.

● الصوم تقوية للروح

ولن نستطيع أن ندرك سر هذا الصوم إلا إذا أدركنا سر هذا الإنسان. . فما الإنسان وما حقيقته؟

هل هو الجثة القائمة، وهذا الهيكل المنتصب؟ هل هو هذه المجموعة من الأجهزة والخلايا واللحم والدم والعظم والعصب؟ إن كان الإنسان هو ذلك فما أحقره وما أصغره!!

نعم. . ليس الإنسان هو ذلك الهيكل المحسوس، إنما هو روح سماوي يسكن هذا الجسم الأرضي. وسر من الملأ الأعلى في غلاف من الطين!

ليست حقيقة الإنسان إلا هذه اللطيفة الربانية، والجوهرة الروحانية التي أودعها الله فيه، بها يعقل ويفكر، وبها يشعر ويتذوق، وبها يدبر مُلْك الأرض، ويتطلع إلى ملكوت السماء،

وبها أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، لا لما فيه من حمأ مسنون. وطين معجون، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

ذلكم هو الإنسان؛ روح علوي وجسد سفلي، فالجسد بيت، والروح صاحبه وساكنه، والجسد مطية، والروح راكب مسافر، ولم يخلق البيت لنفسه، ولا المطية لذاتها، ولكن البيت لمصلحة الساكن، والمطية لمنفعة الراكب، فما أعجب هؤلاء الآدميين الذين أهملوا أنفسهم وعنوا بمساكنهم وجعلوا من ذواتهم خدامًا لمطاياهم؛ وأهملوا أرواحهم وعبدوا أجسادهم، فللجسد وحده يعملون، ولإشباع غرائزه الدنيا ينشطون، وحول بطونهم وفروجهم يدورون، نشيدهم الدائم قول القائل:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام
فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

أولئك الذين وصفهم الله بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

ذلكم هو الإنسان روح وجسد، فلجسده مطالب من جنس عالمه السفلي، وللروح مطالب من جنس عالمها العلوي، فإذا أخضع الإنسان أشواق روحه لمطالب جسده، وحكَّم غريزته في عقله، استحال من ملاك رحيم إلى حيوان ذميم، وربما إلى شيطان رجيم، هذا الذي ناداه الشاعر المؤمن:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران؟!
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان!!

أما إذا عرف الإنسان قيمة نفسه، وأدرك سر الله فيه، وحكَّم جانبه السماوي في جانبه الأرضي، وعني بالراكب قبل المطية، وبالساكن قبل الجدران، وغلّب أشواق الروح على نوازع الجسد. فقد صار ملاكًا أو خيرًا من الملاك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

ومن هنا فرض الله الصيام ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، وينطلق من سجن جسده، ويتغلب على نزعات شهوته، ويتحكم في مظاهر حيوانيته، ويتشبه بالملائكة، فليس عجيبًا أن يرتقي روح الصائم ويقترب من الملأ الأعلى، ويقرع أبواب السماء بدعائه فتفتح، ويدعو ربه فيستجيب له، ويناديه فيقول: لبيك عبدي لبيك، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم...»[1].

● صوموا تصحوا

وإذا كان في الصيام فرصة أي فرصة لتقوية الروح، ففيه فرصة أي فرصة لتقوية البدن، فإن كثيرًا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو ناشئ من بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي غير مفرقين بين ما ينبغي وقد قال ﷺ:

«ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه. بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[2].

وإذا كانت البطن مستنقع البلايا، وكانت المعدة بيت الداء، فإن الحِمْية -أي الامتناع عن الأكل- رأس الدواء. وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة، وقد نشرت إحدى المجلات أن ثلاثمائة قد برئوا من البول السكري بعلاج الصوم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «صوموا تصحوا»[3].

● الصوم تربية للإرادة

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، ولا سلطان إلا ضميره، ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسعة وعشرين يومًا أو ثلاثين في كل عام. فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل، كمدرسة الصيام التي يفتحها الإسلام إجباريًّا

(١) رواه الترمذي وحسنه، وأحمد وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما.
(٢) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه بلفظ مقارب وابن حبان في صحيحه.
(٣) رواه الطبراني بإسناد رواته ثقات كما في «الترغيب» للمنذري.

للمسلمين في رمضان، وتطوعًا في غير رمضان؟! لقد كتب عالم نفساني ألماني بحثًا عن تقوية الإرادة أثبت فيه أن أعظم وسيلة لذلك هي الصوم. أما الإسلام فقد سبق علماء النفس كما سبق من قبل أطباء الجسم، وحسبك أن تسمع نداء الرسول للشباب: «يا معشر الشباب. . من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

ولأن رمضان يُعلِّم الصبر نسبه الرسول ﷺ إليه فقال: «صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر، يذهبن وحر الصدر»[2] وروى عنه في حديث آخر: «لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر»[3].

وإنما كان الصوم نصف الصبر لأن في الإنسان قوى ثلاثًا: قوة شهوية كالتي في البهائم، وقوة غضبية كالتي في السباع، وقوة روحية كالتي في الملائكة، فإذا تغلبت قوته الروحية على إحداهما كان ذلك نصف الصبر، وفي الصوم يتغلب المسلم على قوته الشهوانية من بطن وفرج فكان الصوم حقًّا نصف الصبر.

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وأول عدة للجهاد هو الصبر والإرادة القوية، فإن من لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوًّا، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه، ومن لم يصبر على جوع يوم هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير. والصوم -بما فيه من صبر وفطام للنفوس- من أبرز وسائل الإسلام في إعداد المؤمن الصابر المرابط المجاهد، الذي يتحمل الشظف والجوع والحرمان، ويرحب بالشدة والخشونة وقسوة العيش ما دام ذلك في سبيل الله.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي، والبزار ورجاله رجال الصحيح.
(٣) رواه ابن ماجه.

● تعريف بالنعمة

ومن حكم الصوم أنه يعرف المرء بمقدار نعم الله عليه، فالإنسان إذا تكررت عليه النعم، قَلَّ شعوره بها. النعم لا تُعرف إلا بفقدانها، فالحلو لا تَعرف قيمته إلا إذا ذُقت المر، والنهار لا تَعرف قيمته إلا إذا جُنَّ عليك الليل، وبضدها تتميز الأشياء.

ففي الصوم معرفة لقيمة الطعام والشراب والشبع والري، ولا يُعرف ذلك إلا إذا ذاق الجسم حرارة العطش، ومرارة الجوع.

ومن أجل ذلك ورد أن النبي ﷺ قال: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا. قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا. . فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك. وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[1].

● تذكير بحرمان المحرومين

ومن أسرار الصيام الاجتماعية أنه تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء، فإن الذي نبت في أحضان النعمة ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، لعله يظن أن الناس كلهم مثله. وأنه ما دام يجد فالناس يجدون، وما دام يُطعم لحم طير مما يشتهى وفاكهة مما يتخير، فلن يحرم الناس الحبز والبقول! فلا غرو، أن جعل الله من الصوم مظهرًا للاشتراكية الصحيحة، والمساواة الكاملة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية، يدفعها الموسر والمعسر، ويؤديها من يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه، حتى يشعر الغني أن هناك معدات خاوية، وبطونًا خالية، وأحشاء لا تجد ما يسد الرمق، ويطفئ الحرق، فحرى بإنسانية الإنسان، وإسلام المسلم، وإيمان المؤمن، أن يرق قلبه، وأن يعطى المحتاجين، وأن يمد يده إلى المساكين. فإن الله رحيم، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وصدق رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2] وقد روى أن يوسف عليه السلام كان يكثر الصيام وهو على

(١) رواه الترمذي وحسنه.

(٢) رواه أبو داوود والترمذي

حزائن الأرض، بيده المالية والتموين، فسئل في ذلك فقال: «أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقير»!

● العبودية الكاملة لله

وفي الصوم قبل ذلك وبعده تمام التسليم لله وكمال العبودية لرب الناس ملك الناس إله الناس. وهذه الحكمة هي القدر المشترك في كل عبادة، والهدف الأسمى من كل فريضة، ولن تكون العبادة عبادة، ولا العبد عبدًا إلا بها: يقول رب العباد: «أمرت ونهيت»، ويقول العباد: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وما أظهر هذا التسليم والعبودية في الصوم خاصة، فالصائم يجوع ويعطش وأسباب الغذاء والري أمامه ميسرة لولا حب الله والرغبة في رضاه، وإيثار ما عنده. ولهذا نسب الله الصيام إلى حضرته وتولى جزاء الصائمين بنفسه فقال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه من أجلي، ويدع شرابه من أحلي، ويدع لذته من أجلي، ويدع زوجته من أجلي»(١).

ذلكم هو الصوم في الإسلام، لم يشرعه الله تعذيبًا للبشر ولا انتقامًا، كيف وقد ختم آية الصوم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وإنما شرعه الله إيقاظًا للروح وتصحيحًا للحسد، وتقوية للإرادة، وتعويدًا على الصبر، وتعريفًا بالنعمة، وتربية لمشاعر الرحمة، وتدريبًا على كمال التسليم لله رب العالمين.

● المسلمون والصيام

تلك حكم يحب أن نرعاها حق رعايتها، وأن نضعها نصب أعيننا في صومنا حتى يكون صومًا يؤدي مهمته ويفي بالغرض المقصود منه.

فلبت شعري هل فقه المسلمون أسرار الصيام؟ وهل انتفعوا بشهر رمضان؟ أما أسلافنا فقد جنوا ثماره وتفيئوا ظلاله واستمدوا منه روح القوة وقوة الروح. كان نهارهم نشاطًا

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه.

وإنتاجًا وإتقانًا، وكان ليلهم تزوارًا وتهجدًا وقرآنًا، وكان شهرهم كله تعلمًا وتعبدًا وإحسانًا، ألسنتهم صائمة فلا تلغو برفث أو جهل، وآذانهم صائمة فلا تسمع لباطل أو لغو، وأعينهم صائمة فلا تنظر إلى حرام أو فحش، وقلوبهم صائمة فلا تعزم على خطيئة أو إثم، وأيديهم صائمة فلا تمتد بسوء أو أذى.

أما مسلمو اليوم فمنهم من اتخذ رمضان موسمًا لطاعة الله، ومضاعفة الخيرات، صاموا نهاره فأحسنوا الصيام، وقاموا ليله فأحسنوا القيام، وشكروا نعمة الله عليهم، فلم ينسوا إخوانهم من الضعفاء والمحرومين. واقتدوا برسولهم الكريم الذي كان أجود ما يكون في رمضان - فهو أجرى بالخير من الريح المرسلة.

وبجوار هؤلاء المحسنين خلف سوء، لم ينتفعوا برمضان، ولم يستفيدوا بما فيه من صيام ولا قيام.

جعله الله للقلب والروح فجعلوه للبطن والمعدة، جعله الله للحلم والصبر فجعلوه للغضب والطيش، جعله الله للسكينة والوقار فجعلوه شهر السباب والشجار، جعله الله ليغيروا فيه من صفات أنفسهم فما غيروا إلا مواعيد أكلهم، جعله الله تهذيبًا للغني الطاعم ومواساة للبائس المحروم فجعلوه معرضًا لفنون الأطعمة والأشربة، تزداد فيه تخمة الغني بقدر ما تزداد حسرة الفقير.

فلعل المسلمين يصومون الصيام الذي يعدهم لتقوى الله كما أمر القرآن، حتى يخرجوا من رمضان مطهرين مغفوري الذنوب.

* * *

الحَجّ

الحج هو الشعيرة الرابعة في الإسلام، وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها. إذ كانت فرضيته في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات. ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه «إلى البلد الأمين» الذي أقسم الله به في القرآن. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزًا لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين به، ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم في صلواته ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة.

● صلة المسلم بالبيت الحرام وبانيه

إن هذا البيت العتيق هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل عليهما السلام وهما الرسولان الكريمان اللذان جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يشيدان هذا البناء العتيد ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

إن إبراهيم الخليل قد عُرف في التاريخ بأنه عدو الشرك، ومحطم الأوثان، ورمز التوحيد، وأبو الملة الحنيفية، فملته هي الإسلام الخالص، وهو الذي سمانا المسلمين من قبل، فلا عجب أن يكون بينه وبين المؤمنين من هذه الأمة روابط روحية لا تضعف منها مسافة الزمن الطويل، روابط تجعلهم دائمًا ذاكـــرين لهذا الأب الجليل منقبته وفضلـه

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[آل عمران: ٦٧، ٦٨].

في ظل هذه المعاني والمشاعر والروابط التي تربط المسلمين بالبيت الحرام وبانيه الأول إبراهيم عليه السلام، فرض الله الحج على كل مستطيع وجعل تركه أو الاستخفاف به كفرًا بالله ومروقًا من الدين ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

● أعمال الحج

والحج يبدأ بالميقات -وهو مكان حدَّده الشرع ليحرم منه أو بحذائه أهل جهة معينة- والإحرام يتمثل في نية الحج والتجرد من الثياب المعتادة التي يزهى بها الناس ويختالون، والاقتصار على لبس ثياب بيضاء متواضعة لم تعمل فيها يد الصنعة والتزويق هي أقرب ما تكون إلى الثياب التي يُكَفَّنَ فيها الموتى من المؤمنين. وهو تحقيق لمبدأ العودة إلى طهارة الطبيعة الذي دعا إليه «روسو» وغيره من الفلاسفة ولم يحققوه.

وبعد هذا: يرفع الحاج صوته بهذا الشعار الذي هو النشيد العام للحجاج جميعًا طوال أيام الحج ومواقفه «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وكأنه بهذا الشعار يلبي هذا النداء الإلهي القديم، الذي أمر الله به إبراهيم الخليل عليه السلام أن يُؤذِّن به في الناس ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٦، ٢٧].

وأهم أعمال الحج بعد الإحرام: الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة في نهار التاسع من ذي الحجة.

ودون ذلك في الأهمية رمي الجمار والمبيت بمنى، وذبح الهدي فضلًا عن السنن والمستحبات الأخرى.

وقد كان كثير من هذه الأعمال في حج الجاهليين، توارثوه عن ملة إبراهيم، ولكنهم خلطوا حقًّا بباطل، وصالحًا بسيئ، فحرَّفوا الحج عن وجهته، وملأوا الكعبة -بيت التوحيد- بالأنصاب والأوثان، واتخذوا هذه الأنصاب آلهة مع الله. يعبدونهم لتقربهم إلى الله زلفى، ونذروا لها، وذبحوا باسمها وقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا -آلهتنا- ثم إنهم اصطنعوا لهم في الحج تقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، منها طوافهم حول البيت عرايا، زاعمين أنه لا يليق بهم أن يطوفوا ببيت الله بثياب ارتكبوا فيها الذنوب، وحرَّموا على أنفسهم بعض طيبات الطعام كالدسم وما وراء القوت.

فلما جاء الإسلام نقّى الحج من ضلالات الجاهلية، وأدران الوثنية، وجعله كله خالصًا لله، وحمل على هذا العرى المزري، وذلك التحريم للطيبات بغير إذن من الله.

وفي مثل هذا نزل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

● الكعبة رمز التوحيد والوحدة

إنه لا ضير على الإسلام أن يبقي الصالح من تقاليد العرب وشرائعهم التي ورثوها من دين إبراهيم. وهو بهذا يصل بين القديم والجديد في تاريخ الإيمان، ويقرر وحدة الدين عند الله.

يقول صاحب مجلة «الشهاب»[1] رحمه الله:

«وينتهز بعض الذين لا يعلمون الحكمة البالغة، والنظرة السامية في هذا التشريع الحكيم -هذه الفرصة، فيغمزون الإسلام بأنه لا زال متأثرًا ببقية من وثنية العرب، وأن الكعبة والطواف من حولها، والحجر الأسود واستلامه، وما يحيط بذلك من معاني التقديس والتكريم، إن هو إلا مظهر من مظاهر هذا التأثر. وهذا القول بعيد عن الصحة، عار عن

(١) العدد الثالث ص ٥١ من مقال للإمام الشهيد حسن البنا.

الصواب، فالمسلم الذي يطوف بالكعبة أو يستلم الحجر، يعتقد اعتقادًا جازمًا أنها جميعًا أحجار لا تضر ولا تنفع، ولكنه إنما يقدس فيها هذا المعنى الرمزي البديع، معنى الأخوة الإنسانية الشاملة، والوحدة العالمية الجامعة، ويذكر في ذلك قول الله العلي الكبير: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

«والرمزية هي اللغة الوحيدة لتمثيل المعاني الدقيقة، والمشاعر النبيلة، التي لا يمكن أن تصورها الألفاظ، أو تجلوها العبارات.

والذي يُعَظِّم علم وطنه يعلم أنه في ذاته قطعة نسيج لا قيمة لها ماديًّا، ولكنه يشعر كذلك أنها ترمز إلى كل معاني المجد والسمو التي يعتز بها وطنه، وأنها تصوِّر أدق المشاعر في وطنيته، فهو يحيى هذا العلم ويعظمه ويحترمه ويكرمه لهذه المعاني التي تجمعت جميعًا وتمثلت فيه، والكعبة المشرفة علم الله المركوز في أرضه، ليمثل به للناس أوضح معاني أخوتهم، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم. وإنما كانت بناءً ليكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، ومن أجمل الجميل أن يقوم على رفع هذا البناء إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

«وما الحجر الأسود إلا موضع الابتداء ونقطة التمييز في هذا البناء وعنده تكون البيعة لرب الأرض والسماء، على الإيمان والتصديق والعمل والوفاء: «اللهم إيمانًا بك - لا بالحجر- وتصديقًا بكتابك -لا بالخرافة- ووفاء بعهدك - وهو التوحيد الخالص لا الشرك- واتباعًا لسنة نبيك ﷺ محطم الأصنام».

«فأين هذه المعاني الرمزية العلوية، من تلك المظاهر الوثنية الخرافية»؟ إن الكعبة المشرفة رمز قائم خالد، ركز الإسلام من حوله أخلد وأقدس وأسمى معاني الإنسانية العالمية، والأخوة بين البشر جميعًا ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

● من أسرار المناسك

وإذا فهمنا هذه اللغة الرمزية -وهي لغة تتميز بعالميتها وسعتها- سهل علينا أن نفهم كثيرًا من أسرار مناسك الحج وأعماله.

«فما الإحرام في حقيقته -وهو أول المناسك- إلا التجرُّد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله، وعلى التفكير في جلاله.

وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.

وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، صنع المحب الهائم مع المحبوب المنعم، الذي تُرى نعمه، ولا تُدرك ذاته.

وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماسًا للمغفرة والرضوان.

وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المهج في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين. .

وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها، إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر، ونزغات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات.

وما الذبح - وهو الخاتمة في درج الترقي إلى مكانة الطهر والصفاء- إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار»[1].

● آثار الحج في النفس والحياة

ولقد أكدنا في فصول هذا الكتاب أن المقصد الأول من العبادات هو الامتثال لله والوفاء بحقه تعالى، ومع هذا لا ننكر أن وراء العبادات آثارًا طيبة ومنافع جمة، في حياة الفرد والجماعة.

والحج هو أكثر العبادات الإسلامية اشتمالًا على الأمور التعبدية- التي لا تُعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد- ولكن لعله أيضًا أوضح هذه العبادات أثرًا في حياة المسلمين أفرادًا وشعوبًا. وكيف لا وقد قال الله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ شلتوت ص ١٢٠ .

وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

إن هذا التعليل القرآني لهذه الرحلة المباركة التي يقطعها الناس ركبانًا ومشاة قادمين من كل فج عميق، يفتح لنا بابًا رحبًا للتأمل في هذه المنافع المشهودة التي قدَّمها القرآن في الآية على ذكر اسم الله.

(أ) الحج شحنة روحية وعاطفية:

فالحج شحنة روحية كبيرة، يتزود بها المسلم، فتملأ جوانحه خشية وتقى لله، وعزمًا على طاعته، وندمًا على معصيته، وتغذي فيه عاطفة الحب لله ولرسول الله ﷺ، ولمن عَزَّرُوهُ ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، وتُوقظ فيه مشاعر الأخوة لأبناء دينه في كل مكان، وتوقد في صدره شعلة الحماسة لدينه، والغيرة على حرماته.

إن الأرض المقدسة وما لها من ذكريات، وشعائر الحج وما لها من أثر في النفس، وقوة الجماعة وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك. كل هذا يترك أثره واضحًا في أعماق المسلم، فيعود من رحلته أصفى قلبًا، وأطهر مسلكًا، وأقوى عزيمة على الخير، وأصلب عودًا أمام مغريات الشر. وكلما كان حجه مبرورًا خالصًا لله كان أثره في حياته المستقبلة يقينًا لا ريب فيه، فإن هذه الشحنة الروحية العاطفية، تهز كيانه المعنوي هزًّا، بل تنشئه خلقًا آخر، وتعيده كأنما هو مولود جديد يستقبل الحياة وكله طهر ونقاء. ومن هنا قال الرسول ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1].

(ب) الحج ثقافة وتدريب:

والحج فيه توسيع لأفق المسلم الثقافي، ووصل له بالعالم الكبير من حوله، وقد قالوا السفر نصف العلم. وفي الأمثال السائرة أن حكيمًا قال: من يعش ير كثيرًا، فقال آخر: لكن من يسافر ير أكثر.

وفي هذا السفر للحج تدريب على ركوب المشقات، ومفارقة الأهل والوطن،

(١) رواه البخاري وأحمد والنسائي.

والتضحية بالراحة والدعة في الحياة الرتيبة بين الآل والصحاب، ولم تشأ حكمة الله أن تجعل هذه الرحلة إلى بلد مثل «سويسرا» أو «لبنان» أو غيرهما من البلاد الجميلة التي يتخذها الناس مصيفًا أو مشتى. ولكن شاء الله أن يكون الحج إلى واد غير ذي زرع لا يصلح مصطافًا ولا متربعًا، وذلك تربية للمسلم على احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، ومواجهة الحياة كما فطرها الله بأزهارها وأشواكها، بشهدها وصابها، بحرها وقرها. فهو يلتقي مع الصوم في إعداد المسلم للجهاد.

وحياة الحاج أشبه بحياة الكشَّاف في بساطتها وخشونتها، حياة تَنَقُّلٍ وارتحال، واعتماد على النفس، وبُعْدٍ عن الترف والتكلف والتعقيد، الذي يناسب حياة الخيام في مِنَى وعرفات.

وقد تجلّت هذه الحكمة حين جعل الله الحج دائرًا مع السنة القمرية، فأشهر الحج المعلومات تبدأ بشهر شوَّال، وتنتهي بذي الحجة، وهي أشهر -كما نعلم- تأتي أحيانًا في وقدة الصيف وأحيانًا في زمهرير الشتاء، ليكون المسلم على استعداد لتحمل كل الأجواء، والاصطبار على كل ألوان الصعوبات.

(جـ) المنافع التجارية:

والحج من الجانب المادي فرصة متاحة لتبادل المنافع التجارية على نطاق واسع بين المسلمين.

وقد كان بعض المسلمين في زمن الرسول ﷺ يتحاشون التجارة في أيام الحج ويتحرجون من كل عمل دنيوي يجلب لهم ربحًا أو يدر عليهم رزقًا، خشية أن ينال ذلك من عبادتهم، أو يحط من مثوبتهم عند الله عز وجل، فأجاز الله الكريم لهم ذلك، ما دامت النية خالصة، والمقصود الأصلي هو الحج، ولكل امرئ ما نوى.

روى البخاري عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية. فتأثموا -أي تحرجوا- أن يتجروا في الموسم -موسم الحج- فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك. فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

قال في تفسير المنار: «كان بعض المشركين وبعض المسلمين يتأثمون في أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يقفلون حوانيتهم، فعلَّمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضل من الله لا جناح فيه مع الإخلاص، وقوله تعالى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى نوع من أنواع العبادة. وروى أن عمر قال لسائل في هذا المقام: وهل كنا نعيش إلا على التجارة؟

(د) المساواة والوحدة والسلام:

والحج تدريب عملي للمسلم على المبادئ الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام، فقد أراد الإسلام ألا تكون مبادئه وقيمه الاجتماعية مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعباداته، وشعائره ربطًا وثيقًا، حتى تخطى مجراها في عقل المسلم وقلبه فهمًا وشعورًا، ثم تخطى مجراها في حياته سلوكًا وتطبيقًا.

وقد رأينا في صلاة الجماعة كيف تنمي معاني الأخوة والمساواة والحرية. وهنا في الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها. فالجميع قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار، واختلاف الطبقات، واختلاف القدرات، واختلاف الأذواق، ولبسوا جميعًا ذلك اللباس البسيط -الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى- يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعًا فلا تُفرِّق بين من يملك القناطير المقنطرة، ومن لا يملك قوت يومه، ويقفون في عرفات ألوفًا ألوفًا، فلا تحس بفقر فقير، ولا غنى غني، ولا تحس حين تراهم في ثيابهم البيض وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر، يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون.

ولقد كانت قريش في الجاهلية ترى لنفسها فضلًا على سائر العرب، فترفع عن الوقوف معهم في عرفات وتقف في مزدلفة، فأبطل الإسلام هذه العادة، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض أعمال الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩] كأنه يقول: «بعد ما تبين لكم ما تقدم كله من أعمال الحج، وليس فيها امتياز أحد على أحد،

ولا قبيل على قبيل، وعلمتم أن المساواة وترك التفاخر من مقاصد هذه العبادة بقي شيء آخر، وهو أن تلك العبادة المميزة لا وجه لها، عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد»[1].

ولما كانوا في الجاهلية يتخذون من موسم الحج مجالًا للتفاخر بالأنساب والآباء، وقف النبي ﷺ يخطبهم في أواسط أيام التشريق ويعلنهم بمبدأ الإسلام العالمي: «يا أيها الناس.. إن ربكم واحد وإن آباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلَغْتُ؟ قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ»[2].

● وفي الحج نرى معنى الوحدة جليًّا كالشمس

وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول. لا إقليمية ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعًا مسلمون، برب واحد يؤمنون، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرأون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون. فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غورًا؟

ومن المبادئ التي سبق الإسلام بالدعوة إليها: السلام.

والحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام، وإشرابه روح السلام. فهو رحلة سلام إلى أرض سلام، في زمن سلام.

أرض الحج هي البلد الحرام والبيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] والذي قال فيه عمر: لو وجدت فيه قاتل أبي ما مسته يدي.

إنها منطقة أمان فريد في نوعه، شمل الطير في الجو، والصيد في البر، والنبات في الأرض، فهذه المنطقة لا يُصاد صيدها ولا يُروَّع طيرها ولا حيوانها، ولا يُقطع شجرها ولا حشائشها! !

ومعظم أعمال الحج يقع في شهرين -ذي القعدة وذي الحجة- من الأشهر الحرم،

(١) من تفسير الآية في المنار.
(٢) رواه أحمد.

التي جعلها الله هدنة إجبارية تغمد فيها السيوف، وتحقن فيها الدماء، ويوقف القتال ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧].

والمسلم حين يحرم بالحج يظل فترة إحرامه في سلام حقيقي، مع من حوله وما حوله، فلا يجوز له أن يقطع نباتًا أو يعضد شجرة، كما لا يجوز له أن يذبح حيوانًا صاده غيره له، أو يرمي هو صيدًا في الحرم، أو خارجه قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦].

بل لا يجوز للمحرم أن يحلق شعر نفسه أو يقص ظفره، حتى يتحلل من إحرامه فيقص ويحلق أو يقصر.

فهل رأت الدنيا تطبيقًا عمليًا للسلام وتدريبًا عليه كهذا الذي صنعه الإسلام في رحلة الحج: رحلة السلام إلى أرض السلام، في زمن السلام؟!

(هـ) الحج مؤتمر عالمي:

والحج يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي إسلامي، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة، بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته كل عام على المسلمين.

فهناك يجد المسلم إخوانًا له من قارات الدنيا الخمس، اختلفت أقاليمهم، واختلفت ألوانهم، واختلفت لغاتهم، وجمعتهم رابطة الإيمان والإسلام، ينشدون نشيدًا واحدًا: «لبيك اللهم لبيك».

إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى، وأكثر من إيحاء، إنه يحيى في المسلم الأمل، ويطرد عوامل اليأس، ويبعث الهمة، ويشحذ العزم. إن التجمع يوحي دائمًا بالقوة، ويوقظ الآمال الغافية. والذئب إنما يأكل من الغنم الشاردة.

إن هذا المؤتمر أعظم مُذَكِّر للمسلم بحق أخيه المسلم: وإن تباعدت الديار، وأعظم مذكر بأخوة الإسلام، ورابطة الإيمان. هذا المؤتمر هو «الفرن العالي» الذي تذوب في حرارته النزعات القومية والوطنية، وتختفي فيه كل الشعارات والجنسيات إلا شعارًا واحدًا

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

في هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم، ورجال الإصلاح، ورجال السياسة، فما أجدرهم - وقد التقوا على هدف واحد - أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا على تدبير أفضل الخطط، وأحسن الوسائل، ليبلغوا الأهداف ويحققوا الآمال.

ولقد نبهنا الرسول الكريم إلى قيمة هذا المؤتمر حين اتخذ منه منبرًا لإذاعة أهم القرارات والبلاغات التي تتصل بالسياسة العامة للمسلمين. ففي أول سنة حج فيها المسلمون تحت إمارة أبي بكر، بعث النبي ﷺ وراءه عليًّا ليعلن على الناس إلغاء المعاهدات التي كانت بينه وبين المشركين الناكثين. وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي السنة التالية التي حَجَّ فيها الرسول ﷺ بنفسه أعلن فيها على الجمهور خطبة «البلاغ» أو «الوداع» التي لخص فيها أهم مبادئ الإسلام ودستور الإسلام.

ولقد عرف علماء الإسلام قيمة هذا المؤتمر. فاتخذوا منه فرصة لتبادل الآراء، وتعارف الأفكار، ورواية الأحاديث والأخبار.

كما عرف الخلفاء قيمة هذا الموسم العالمي. فجعلوا منه ساحة لقاء بينهم وبين أبناء الشعب القادمين من كل فج عميق، وبينهم وبين ولاتهم في الأقاليم، فمن كانت له من الناس مظلمة أو شكاية فليتقدم بها إلى الخليفة ذاته بلا وساطة ولا حجاب. وهناك يواجه الشعب الوالي أمام الخليفة بلا تهيب ولا تحفظ، فيغاث الملهوف، وينصف المظلوم، ويرد الحق إلى أهله، ولو كان هذا الحق عند الوالي أو الخليفة! !

كتب عثمان بن عفان أمير المؤمنين وخليفتهم إلى جميع الأمصار الإسلامية كتابًا قال فيه:

«إني آخذ عمالي - أي ولاتي - بموافاتي في كل موسم، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع عليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعمالي حق قِبَلَ الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقوامًا

يُشتمون ويُضربون ، فمن ادعى شيئًا من ذلك فليواف الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا. . إن الله يجزي المتصدقين».

ومما ينبغي أن نذكره هنا أن هذا المؤتمر لم يكن فرصة للمسلمين وحدهم للتظلم من ولاتهم وطلب حقوقهم ، بل وجد فيه غير المسلمين -ممن يعيشون في ظل دولة الإسلام- هذا المعنى وتلك الفرصة. وكلنا يعلم قصة ابن القبطي الذي سابق ابن والي مصر وفاتحها عمرو بن العاص فسبق القبطي. فضربه ابن عمرو فأنهى أبوه مظلمته إلى عمر ، فاقتصه منه في موسم الحج على مرأى ومسمع من ألوف الحجيج ، ثم قال للوالي عمرو كلمته المشهورة أمام شهود المؤتمر الكبير : يا عمرو. . متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ !

فلا عجب إن كانت هذه العبادة «الحج» قذًى في أعين الكثيرين من خصوم الإسلام فيشهرون أقلامهم لتشويهه أو الطعن فيه ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

من سنوات كتب أحد المبشرين النصارى في تقرير له عن مدى جدوى التبشير في بلادنا الإسلامية وخاصة في مصر فكان مما قال فيه : «سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير المسيحي ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع : القرآن. . والأزهر. . واجتماع الجمعة الأسبوعي. . ومؤتمر الحج السنوي».

وإن هذه الأربعة لباقية بإذن الله ما بقي هذا الإنسان على تلك الكرة ، وليمت من يشاء بغيظه! !

على أن المسلمين -للأسف- لا يستفيدون من هذا المؤتمر العظيم كما ينبغي ، ولعلهم قد بدأوا يفيقون.

● من شهادات المنصفين

وفي الأجانب من شهد بفضل هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة ، وأشار بما لها من مآثر وآثار في النفس والحياة. من هؤلاء الأستاذة الإيطالية الدكتورة «فاجليرى» في كتابها الذي ترجم بعنوان «دفاع عن الإسلام» قالت فيه عن الحج : «على كل مسلم ، إذا توفرت فيه

بعض الشروط أن يقوم بالحج إلى مكة مرة واحدة في حياته على الأقل. ومن طبيعة القوى العميقة المكنونة في هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشري عن اعتناقها إلا في القليل النادر. ومع ذلك فإن ما يمكن استيعابه من تلك القوى، في سهولة ويسر، يتكشف عن حكمة كاملة، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم. إن العرب، والفرس، والأفغان، والهنود، وأبناء شبه جزيرة الملايو، وأبناء المغرب، والسودان، وغيرهم، كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم. وهم إذ يلتفون في مثل ذلك المكان لمثل هذا الغرض إنما ينشئون صلات جديدة من المحبة والأخوة.

مرة واحدة في حياة المسلم على الأقل تلغي الفروق كافة بين الفقير والغني، بين الشحاذ والأمير، إلغاءً تامًا. ذلك أن كل حاج مسلم يلبس -خلال أداء تلك الفريضة المقدسة- الثياب البسيطة نفسها، ويخلف وراءه حلله الشخصية، ويتخذ لنفسه شعارًا واحدًا ليس غير، هو كلمة «الله أكبر»! . والشعائر التي يتعين على الحجاج أداؤها، من مثل الطواف ببيت الله «الكعبة» توقظ في نفسه ذكرى الأنبياء والآباء العظام الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة. إنها تعيد إلى الحياة أعمال إبراهيم، مؤسس الدين الخالص، وأعمال ابنه إسماعيل وزوجته هاجر. وهي توقظ في الحاج النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم وفي خضوعهم لمشيئة الله».

* * *